

الايديولوجية والأجهزة الايديولوجية للدولة

لويس التوسر

ترجمة : عابدة لطفى

مراجعة وتقديم د. امينة رشيد

مازال نص الفيلسوف الفرنسي « لويس التوسر » ، في « الايديولوجية وأجهزة الدولة الايديولوجية » ، الصادر في الستينيات ، من أهم كتابات القرن العشرين في قضايا الفكر والايديولوجية ، وعلاقتها بجهاز الدولة السياسى ، وإذا كانت قد اتضحت، منذ كتاب ماركس الضخم ، « الايديولوجية الالمانية » ، علاقة التأثير بين البنية التحتية والبنى الفوقية ، من فلسفة وتشريع وأدب وفن ، إلخ ، فإن الفضل يرجع الى الفكر الماركسى الحديث (فى اطار مجهوده لدراسة وبلورة مفهوم الايديولوجية) فى اضاءة واثراء ما لم يكن قد تعمق بعد فى الصلة بين انتاج الفكر وعملية الانتاج بشكل عام فى المجتمع ، وخاصة فى المجتمع الاوروبى الرأسمالى .

فبالرغم من معرفة طبيعة العلاقة بين الايديولوجية والمصالح المتباينة للفئات والطبقات التي تفرزها ، وبالرغم من رصد الكثير من الوقائع التي تثبت هذه العلاقة ، لم تكن هناك نظرية مفسرة للظاهرة ، حتى جاء « جرامشي » ، الفيلسوف الماركسي الايطالي ، بملاحظاته حول المجتمع المدني والمجتمع السياسى ضمن جهده لدراسة وضع المثقفين في الدولة : تعريفا ، وصفا ، تأملا ، من أجل فهم دورهم ووظيفتهم في المجتمع ، المرتبطين باعادة انتاج علاقات الانتاج التابعة لمصالح الطبقات السائدة . ثم اعتمد « التوسر » ، الفيلسوف الماركسي الفرنسي على هذه البدايات ليضيف فكره ومساهمته في اثراء النظرية الماركسية للدولة .

ان الدولة معروفة في التراث الماركسي ، منذ نصوص ماركس الشهيرة في « صراع الطبقات في فرنسا » ، « ١٨ برومير » ، الخ بصفتها جهاز قمى ، قائم على تشريع ، جيش ، بوليس محاكم . وتكون وظيفته الحفاظ على مصالح وكيان الطبقات السائدة . يضيف « التوسر » الى هذا التعريف ، مسلما به ، مفهوما مكمل له ، أى مفهوم جهاز الدولة الايديولوجى ، الذى يساهم مع جهاز الدولة السياسى في ضمان شروط اعادة انتاج العلاقات السائدة للانتاج . وهى عملية لا تتم فقط في الانتاج المادى نفسه بل من خلال القيم ، الافكار ، المعارف التي تضاف الى المهارات العملية من أجل سلامة وحسن تادية الوظيفة . فكل شخص في المجتمع ، كما أشار « التوسر » ، يؤدى دوره في حدود ايديولوجية معينة الملامح : المدير يتقن سلوك الامارة والعامل يتعلم الخضوع والاطاعة ، ومحترف الايديولوجية يتبنى بلاغة الاسلوب ، جودة الكلام والعلاقات العامة ، جودة الكتابة ، ويغلف كل ذلك في شعارات عن « الأخلاقية » ، « حب الوطن » ، الشعور بالمسؤولية ، الخ ويصف « التوسر » ما يسميه بأجهزة الدولة الايديولوجية المسؤولة عن هذا التحقيق الضرورى لاعادة انتاج علاقات الانتاج السائدة وصفا تاريخيا وآنيا مستقيضا ، من الجهاز الدينى الذى كان سائدا في العصور الوسطى في ظل المجتمع الاقطاعى الى الجهاز الاسرى ، المدرسى ، النقابى ، الخ ... فبينما كان ثنائى الجهاز الدينى ، الجهاز الاسرى مسيطرا

في المجتمعات القديمة ، يبرز « التوسر » أهمية وفاعلية
ثنائي النظام المدرسي - النظام الاسرى في المجتمعات
البورجوازية ، للرأسمالية ، « الناضجة » حسب قوله فقد
حلت المدرسة المعاصرة محل الكنيسة في الماضي ، التي كانت
توفر التعليم والثقافة بالاضافة الى مكانتها الروحية
والاخلاقية . فيقع على المدرسة البورجوازية التي تستقبل
التلاميذ خمسة أو ستة أيام في الاسبوع لمدة ٨ ساعات في اليوم
(والمدرسة مجانية في فرنسا) دور تكوين انسان المستقبل
بالمهارات والقيم المطلوبة والسلوك المفروض على العامل
الفنى ، خبير الايديولوجية ، الوزير ، المحير ، الخ ، في المجتمع
للرأسمالية .

يستطيع « التوسير » من خلال هذا النص الشديد الامية
أن يهدم كثيرا من المسلمات الخاصة باستقلال الفكرة نقاء
المعارف حياد التعليم ، عفوية القيم ، ديمقراطية المجتمعات
للرأسمالية .

مساهما مساهمة أساسية ليس فقط في اضاءة جزء
جزء مهم من حياة الفكر والثقافة الأوروبية التقليدية والحديثة،
بل أيضا في بناء وعينا المعاصر بحقيقة وجودنا في مجتمعاتنا،
كجزء من أنشطتها ، المدمرة منها ، والخلافة .

د . أمينة رشيد

حول إعادة انتاج شروط الانتاج

ينبغي أن نبرز الى الوجود شيئا مررنا به سريعا عند تحليلنا لضرورة تجديد وسائل الانتاج لكي يكون الانتاج ممكنا ، كانت ملحوظة عابرة وسوف نهتم بها الان هي نفسها .

من المعروف كما كان ماركس يقول (١) ان أى تشكيلة اجتماعية لا يمكن أن تضمن بقاءها الا اذا اقترن الانتاج باعادة انتاج شروط الانتاج .
اعادة انتاج شروط الانتاج هو اذن الشرط الاخير للانتاج وذلك اما ان يكون « بسيطا » أى اعادة انتاج نفس شروط الانتاج السابقة أو ان يكون « موسعا » أى يتوسع فيها .

ما هي اذن اعادة انتاج شروط الانتاج ؟

هنا نطرق مجالا أليفا جدا (منذ الكتاب الثانى من رأس المال) وفى نفس الوقت تم تجاهله على نحو غريب ، ان المسلمات المتسلطة على الازمان (أى المسلمات الايديولوجية التجريبية أو الامبريقية) من وجهة نظر الممارسة الانتاجية البسيطة (وهى نفسها مجردة بالنسبة لعملية الانتاج) ، تتحد مع « وعينا » اليومى الى درجة يصعب معها ان لم يكن مستحيلا الارتفاع الى فكرة اعادة الانتاج . ورغم ذلك ، يبقى كل شئ - بدون هذه الاخيرة - مجردا (أكثر من جزئى : مشوها) حتى على مستوى الانتاج نفسه ، وبالأحرى على مستوى الممارسة البسيطة .

ولنحاول الان فحص الاشياء بمنهجية .

لكي نبسط عرضنا نقول أننا اذا وضعنا فى الاعتبار أن كل تشكيلة اجتماعية تعود الى نمط انتاج سائد فاننا نستطيع أن نقول ان عملية الانتاج توظف قوى الانتاج المتوفرة فى وتحت ظل علاقات انتاج محددة .

يترتب على ذلك أن أى تشكيلة اجتماعية عليها فى نفس الوقت الذى تنتج فيه ، ولكى تتمكن من الانتاج أن تعيد انتاج الشروط اللازمة لانتاجها ، عليها اذن أن تعيد انتاج :

(١) فى خطاب كوجليان فى « خطابات عن رأس المال » . المطبوعات الاجتماعية ص ٢٩٩

١ - قوى الانتاج .

٢ - علاقات الانتاج القائمة .

اعادة انتاج وسائل الانتاج :

لقد اثبت ماركس في الكتاب الثانى من « رأس المال » ان امكانية الانتاج مرهونة بتامين اعادة انتاج الشروط المادية للانتاج ، الا وى اعادة انتاج وسائل الانتاج . وهذا ما يعترف به الان الجميع بما فيهم الاقتصاديون البورجوازيون الذين يعملون في الموازنة العامة او منظرو الاقتصاد الجماعى المحدثون . ان اى اقتصادى كائى رأسمالى يعرف جيدا أنه يجب أن يضع في حسبانها كل عام من أين سوف يستبدل ما ينضب او يستهلك في عملية الانتاج من مواد أولية ، منشآت ثابتة (مباني) ، أدوات انتاج (آلات) الخ . . . ويتساوى الاقتصادى مع للرأسمالى في أنهما يعبران عن وجهة نظر خاصة بالمشروع نكتفى بمجرد تفسير حدود الممارسة النقدية الحسابية للمشروع .

ولكننا أدركنا بفضل عبقرية كيسنى الذى كان من أوائل الذين طرحوا هذه الاشكالية الواضحة للعيان وكذلك أيضا بفضل ماركس الذى وجد لها حلا ، أدركنا أن التفكير في اعادة انتاج الشروط المادية للانتاج لا يمكن أن يتم على مستوى المشروع . ما يحدث على مستوى المشروع هو نتيجة تمطى فقط فكرة ضرورة اعادة الانتاج ولكنها لا تسمح على الاطلاق بالتفكير في الشروط والآليات .

وتكنى لحظة من التفكير للاقتناع : السيد س . . . رأسمالى ، ينتج المنسوجات الصوفية في مصنع النسيج الذى يملكه ، عليه أن « يعيد انتاج » مادته الأولية ، أدواته ، معداته . . . الخ ، الا أنه ليس هو المنتج لمستلزمات انتاجه ، بل هم رأسماليون آخرون : مربى كبير للمواشى الاسترالية ، متخصص كبير في صناعة المعادن منتج لماكينات التشغيل وآخرون كثيرون غيرهم والذين عليهم هم أيضا لى ينتجوا مستلزمات اعادة انتاج شروط الانتاج للسيد س . . . أن يعيدوا انتاج الشروط اللازمة لاعادة انتاجهم وهكذا الى ما لا نهاية . كل هذا يجب أن يكون بنسب بحيث يكفى العرض في السوق القومى ، ان لم يكن في السوق العالمى ، الطلب على وسائل الانتاج من أجل اعادة الانتاج . ولفهم هذه الآلية الشبيهة بخيط لا نهاية له ، يجب علينا أن نتتبع مجمل مسار ماركس في كتابيه الثانى والثالث من رأس المال وندرس بخاصة علاقات حركة رأس المال بين

القطاع الاول المتمثل في انتاج وسائل الانتاج والقطاع الثانى المتمثل في انتاج وسائل الاستهلاك وتحقيق فائض القيمة .

ولن نتوسع في تحليل هذه المسألة . سنكتفى باننا ذكرنا ضرورة القائمة لاعادة انتاج الشروط المادية للانتاج .

اعادة انتاج القوى العاملة :

ربما نكون قد صدمنا القارىء اذ ذكرنا اعادة انتاج وسائل الانتاج دون ذكر اعادة انتاج القوى الانتاجية ، أى اننا اغفلنا ما يميز قوى الانتاج عن وسائل الانتاج أى اعادة انتاج قوة العمل . اذا كانت ملاحظة ما يحدث في المشروع وبخاصة اختبار الممارسة النقدية ، الحسابية لتوقعات املاك - استثمار رأس المال ، يمكنها ان تعطينا فكرة اقرب لوجود العملية المادية لاعادة الانتاج ، فاننا نتدرج الان لجال يصبح فيه ملاحظة ما يحدث في المشروع شبه مستحيل ان لم يكن اعمى تماما وذلك لسبب بسيط وهو ان اعادة انتاج قوة العمل تحدث اساسا خارج نطاق المشروع .

كيف تضمن اعادة انتاج القوى العاملة ؟

عن طريق اعطاء قوة العمل الوسيلة المادية التى تكفل لها اعادة الانتاج : عن طريق الأجر ، يرد الأجر في حسابات أى مشروع ، كراسمال يد عاملة ، (٢) لا كشرط لاعادة الانتاج المادى لقوة العمل . ويرجع ذلك الى ان الأجر يمثل جزءا فقط من القيمة المنتجة من انفاق قوة العمل واللازمة لاعادة انتاجه أى لازمة لاعادة تكوين قوة العمل المأجور (من مسكن ، ملابس ، طعام ، باختصار ما يؤمله لان يتقدم غدا - وكل صباح ربانى - امام شباك المصنع) بالاضافة الى أنها لازمة لتربية وتعليم الاطفال الذين يتجدد العامل فيهم (في س من النسخ : س تساوى صفر ، ١ ، ٢ ، الخ ٠٠) كقوة عمل .

ويجدر هنا ان نذكر ان هذا الكم من القيمة (الأجر) والضرورى لاعادة انتاج القوى العاملة لا يتحدد فقط عن طريق الحد الأدنى للاحتياجات البيولوجية بل عن طريق الحد الأدنى للاحتياجات التاريخية ايضا (وقد دلال ماركس على ذلك بان العمال الانجليز يحتاجون اثناء عملهم لشرب البيرة في حين ان البروليتاريا الفرنسية تحتاج لشرب النبيذ)

(٢) اعطاما ماركس المفهوم المظهر : رأس المال المتغير . Le Capital Variable

يحكم ان طبيعة احتياجات الطبقة العاملة حد ادنى تاريخى متغير .
بالاضافة الى ذلك فان هذا الحد الادنى له وجهان تاريخيان من حيث
ان احتياجات الطبقة العاملة التاريخية لا يتم تعريفها عن طريق الطبقة
العاملة نفسها والمعترف بها لدى الطبقة الرأسمالية بل تحدد عن طريق
الاحتياجات التاريخية التى يفرضها صراع طبقة البروليتاريا (صراع
طبقي مزدوج ، ضد ارتفاع عدد ساعات العمل وضد انخفاض الاجور) .

ولا يكفى تأمين الشروط المادية لاعادة انتاج القوى العاملة حتى يعاد
انتاجها لانه يجب ايضا ان تكون القوى العاملة على درجة من الكفاءة
تسمح لها بان تستغل الاستغلال الجيد فى النظام المعقد لعملية
الانتاج .

ان تطور القوى المنتجة ونموذج الوحدة المكونة تاريخيا للقوى المنتجة
ينتج فى وقت ما هذه النتيجة ان قوة العمل يجب ان تكون ذات كفاءة
متعددة وبالتالي فيشترط ذلك ايضا عند اعادة انتاجها ، كفاءة متعددة
حسب متطلبات التقسيم الاجتماعى - التقنى للعمل فى وظائفه واستخداماته
المختلفة .

كيف يضمن النظام الرأسمالى اعادة انتاج الكفاءة النوعية للقوى
العاملة ؟ بعكس ما كان يحدث فى التشكيلات الاجتماعية الاستيعابية
والاستيعابية ، نجد ان اعادة انتاج كفاءة القوى العاملة تميل (نحن
بمصدق قانونى نزوعى Tendancielle) الى ان تصبح بدلا من ان تنتم فى
مكان العمل (اى ان يتم التعلم داخل الانتاج نفسه) يتم خارج الانتاج
عن طريق النظام الحرسى الرأسمالى وعن طريق مؤسسات دراسية
اخرى .

وماذا يتعلمون فى المدرسة ؟

يتعلمون فى كل الاحوال ، القراءة والكتابة والحساب ، ان بعض
التقنيات الى جانب اشياء اخرى من ضمنها عناصر - يمكن ان تكون
اولية او على العكس متعمقة - من الثقافة العلمية ، او الأدبية ،
المستخدمة بشكل مباشر فى الوظائف المختلفة للانتاج (تثقيف للعمال
وآخر للتقنيين وثالث للمهندسين ورابع للكوادر العليا ، الخ .) . اننا
نتعلم ان " مهارات ، .

ولكن الى جانب وبمناسبة هذه التقنيات والمعارف ، يتم أيضا في المدرسة تعليم « قواعد » السلوك المناسب ، أي القواعد التي يجب أن يحترمها كل عامل في تقسيم العمل حسب الوظيفة التي « يتحكم » عليه أن يشغلها : وهي القواعد الأخلاقية للوعي الخنى والمهنى وهذا معناه بوضوح قواعد احترام التقسيم الاجتماعى - التقنى للعمل ، في النهاية قواعد النظام للقائم للسيطرة الطبقية . كما سيتم أيضا تعليم « اللغة الفرنسية الجيدة » ، « الكتابة » الجيدة أى (بالنسبة لرأسماليى المستقبل وخدامهم) « إعطاء الأوامر الجيدة » أى (ومدا حل مثالى) « أن يجيدوا التوجه الى العمال » الخ . بشكل علمى يمكننا أن نقول أن إعادة انتاج قوة العمل تتطلب ليس فقط إعادة انتاج كفاءتها ولكن في نفس الوقت إعادة انتاج خضوعها لقواعد النظام القائم بمعنى تجديد انتاج خضوعها للايديولوجية المسيطرة بالنسبة للعمال وإعادة انتاج لمقدرة استعمال الايديولوجية السائدة بالنسبة لمثلى الاستغلال والقهر حتى يضمنوا عن طريق الكلمة أيضا سيطرة الطبقة السائدة .

المدرسة إذن (وكذلك مؤسسات أخرى للدولة مثل الكنيسة ، أو أجهزة أخرى كالجيش) تلقن مهارات ولكن في أشكال تضمن الخضوع والاذعان للايديولوجية السائدة . إذن فينبغى على جميع أطراف الانتاج والاستغلال والقهر بما في ذلك « محترفى الايديولوجية » (حسب مصطلح ماركس) أن يكونوا مشبمين بهذه الايديولوجية من أجل قيامهم بأدوارهم المطلوبة « بضمير » سواء المستغلين بفتح الغين (البروليتاريا) أو المستغلين بكسر الغين (الرأسماليين) أو معاونى الاستغلال (الكوادر) أو كهنة الايديولوجية السائدة العظام (« موظفيها ») الخ . . . تظهر إذن إعادة انتاج قوة العمل ، كشرط أساسى لها ، ليس فقط إعادة انتاج « كفاءتها » بل أيضا إعادة انتاج اخضاعها للايديولوجية السائدة ، أو « لممارسة » هذه الايديولوجية بالإضافة الى انه ، للدقة ، لا يكفى أن نقول « ليس فقط بل أيضا » ، لأنه يتضح أن ضمان إعادة انتاج كفاءة قوة العمل يتم في إطار أشكال الاخضاع الايديولوجى .

ومن هنا يتضح لنا الوجود المؤثر والفعال لحقيقة جديدة ، ألا وهي : الايديولوجية .

سنقدم هنا ملحوظتين .

الأولى كى نقدم خلاصة تحليلنا لإعادة الانتاج . لقد درسنا سريعا أشكال إعادة انتاج القوى الانتاجية ، أى من ناحية وسائل الانتاج ومن ناحية أخرى قوة العمل .

الا اننا لم نتطرق بعد لمسألة اعادة انتاج علاقات الانتاج . رغم
ان هذه المسألة أساسية بالنسبة للنظرية الماركسية عن نمط الانتاج .
واغفالها يعد حذفاً نظرياً بل وأكثر من ذلك خطأ سياسياً جسيماً
يجب اذن ان نتناول هذا الموضوع الا اننا من اجل ان نتحدث عنه علينا
مرة أخرى ان نقوم باستطراد طويل .

وهنا تأتي الملاحظة الثانية وهي تخص هذا الاستطراد حيث نجد
انفسنا مرغمين على طرح السؤال القديم : ما هو المجتمع ؟

البنية التحتية والبنية الفوقية :

لقد اتاحت لنا الفرصة (٢) للوقوف عند الخاصية الثورية للمفهوم
الماركسي للكل الاجتماعي ولما يميزه عن « الشمولية » الهيكلية . لقد
قلنا (وهذه الاطروحة مستمدة من القضايا الأساسية للمادية التاريخية)
ان المفهوم الماركسي للمجتمع يتمثل فيما يسميه ماركس البنية التحتية
والبنية الفوقية ويعنى بالمصطلح الاول الركيزة الاقتصادية من وحدة
القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، أما المصطلح الثانى فيشمل مستويين :
المستوى الاول قضائى - سياسى أى القانون (أو الشرائع) والدولة ،
المستوى الثانى وهو الايديولوجية وتمثله الايديولوجيات المختلفة كالدينية ،
الأخلاقية ، القضائية ، السياسية ، الادبية ، الخ ..

هذا للتصور الى جانب اهميته النظرية - التعليمية (التى تلقى
النضوء على الاختلاف الذى يفصل ماركس عن هيجل) فانه يعطى هذه
الميزة النظرية الأساسية ألا وهي انه يسمح بتسجيل ، فى الجهاز النظرى
لهذه المفاهيم الأساسية ، ما سميناه : درجة الجدوى لكل منها ، ماذا
نعنى بهذا القول ؟

من السهل الاقتناع ان هذا التصور لبنية أى مجتمع على انه مبنى
يشتمل على قاعدة (بنية تحتية) يرتفع فوقها طابقا البنية الفوقية ،
هو مجاز وبمعنى أدق مجاز مكانى :

٣. فى . . . اجل ماركس « و « قراءة فى رأس المال » . مارسبرو ، ١٩٦٥

مجاز موصى أو خاص بوضع الأشياء Topique (٤) ، هذا المجاز يوحي بأن الطوبى العليا لا يمكنها أن تكون معلقة في الهواء من نفسها لو لم تكن مستندة على قاعدتها .

إن الوظيفة الأساسية لمجاز المبنى هي أن تصور أن القاعدة الاقتصادية يقع عليها للتحديد الأول والآخر ، هذا المجاز المكاني يعطى للقاعدة إذن ، معامل كفاءة ، (٥) معروف تحت المصطلحات التالية الشائعة: أن القاعدة الاقتصادية هي التي تحدد أولا وأخيرا ما يحدث في الطوابق (طوابق البنية الفوقية) .

بدءا من معامل الكفاءة هذا الأول والآخر متاثر بالطبع طوابق البنية الفوقية بمعاملات كفاءة مختلفة ولكن أى نوع منها ؟

لقد حدد التراث الماركسي أشكال معامل كفاءة البنية الفوقية والتي تتحدد أولا وأخيرا عن طريق القاعدة (البنية التحتية) . كما يلي :

١ - هناك « استقلالية نسبية » للبنية الفوقية بالمقارنة مع

القاعدة .

٢ - هناك « حركة عكسية » من البنية الفوقية للقاعدة .

نستطيع إذن أن نقول أن الميزة النظرية الكبرى للمجاز المكاني الماركسي ، أى البنية (قاعدة وبنية فوقية) ، هي أن تبين :

أن مسائل التحديد (أو معامل الكفاءة) حاسمة ، وأن القاعدة هي التي تحدد في النهاية البناء كله ، وإذن بالتالى أنه ينبغي طرح القضية النظرية لنوع الكفاءة ، الناتجة ، الخاصة بالبنية الفوقية ، وهذا معناه ضرورة التفكير فيما سماه التقليد الماركسي بالمصطلحات المقترنة :

« استقلال نسبي ، للبنية الفوقية و « حركة عكسية » من البنية الفوقية

للقاعدة .

١) كلمة طوبى Topique . إننى من جهة توبوس الإغريقية ونمر مكان والطريقا تشل الوضع الذى يحتله التوائع في مساحة محددة : فالإقتصاد يشمل المنطقة المستقلة (القاعدة) والبنية الفوقية من فوقه .

٢) معامل كفاءة indice d'efficacite هو مصطلح

يستخدم في علم الرياضات وهو الأكثر ملاءمة للنسب من المعنى المطور المترجمة

ان العقبة الاساسية لهذا التصور المكانى لبنية اى مجتمع كانه مبنى له قاعدة وطوابق ، تتضح فى أنه مجازى أى انه يظل وصفاً • ويبدو لنا أننا نستطيع أن نقدم الاشياء بشكل مختلف ، ولا يجب أن يسئ أحد فهمنا فأننا لا نرفض على الاطلاق المجاز المتفق عليه انها مجرد محاولة لتخطيه •

فى اعتقادنا أنه انطلاقاً من اعادة الانتاج يمكن ويجب أن نفكر فى الصفات الجومرية لوجود طبيعة البنية الفوقية ويكفى أن نتبنى وجهة نظر اعادة الانتاج حتى نجد الحلول المطلوبة للعديد من المشاكل التى طرحها المجاز المكانى للمبنى دون أن يجد لها حلولاً توضح مفاهيمها •

اننا نفترض أساساً أننا لا يمكن أن نطرح هذه المشاكل (وبالتالى نجد لها حلولاً) الا من وجهة نظر اعادة الانتاج • وهذا ما سنحاول تطبيقه عن طريق تحليل مختصر للقانون والدولة والايديولوجية • وسنوضح فى آن واحد ما يحدث من وجهة نظر الممارسة والانتاج من ناحية واعادة الانتاج من ناحية أخرى

الحولة :

يبدو التراث الماركسى سوريا فلقد حدد مفهوم الدولة منذ « البيان » و « ١٨ برومير » (وفى جميع النصوص الكلاسيكية اللاحقة وبخاصة نص ماركس عن « الكومونة فى باريس » ونص لينين عن « الدولة والثورة ») • كجهاز قمعى • الدولة « آلة » قمع تسمح للطبقات السائدة (فى القرن ١٩ كانت الطبقات السائدة هى البورجوازية وطبقة كبار ملاك الاراضى) أن تحكم سيطرتها على طبقة العمال من أجل اخضاعها لعملية الابتزاز لفائض القيمة (أى لعملية الاستغلال الرأسمالى) •

الدولة هى اذن قبل كل شئ ما أسماه الماركسيون التقليديون : جهاز الدولة ، ويشمل هذا المصطلح ليس فقط الجهاز المختص (بمعناه الضيق) والذى أدركنا وجوده وأهميته من خلال متطلبات الممارسة القضائية من شرطة ومحاكم وسجون ، بل يشمل أيضاً الجيش الذى يتدخل مباشرة كقوة قامعة (وقد دفعت البروليتاريا ثمن هذه التجربة من دمها) يعتمد عليها حين تكثر الاحداث على عاتق الشرطة وأجهزتها الفرعية المختصة وفوق هذه المجموعة نجد رئيس الدولة ، الحكومة والادارة (أى السلطة التنفيذية)

النظرية الماركسية اللينينية للدولة تعرف الدولة وتحدد وظيفتها
كقوة تنفيذ وتدخل قمى لخدمة الطبقات السائدة فى الصراع القائم من
جانب البورجوازية وحلفائها ضد البروليتاريا .

من النظرية الوصفية الى النظرية فى حد ذاتها :

الا اننا هنا أيضا نجد هذا التعريف بطبيعة الدولة هو فى جزء
كبير منه وصفى كما هو الحال أيضا بالنسبة للمجاز المستخدم للبناء
الذى يمثل البنية التحتية والبنية الفوقية .

ولازالة أى غموض يجب أن نشرح ما نعنيه بمصطلح وصفى . عندما
نشير الى مجاز البناء أو الى « النظرية » الماركسية للدولة ، بصفتها
مفاهيم وتصورات وصفية لموضوعها فاننا لا نقصد بهذا أى انتقاد .
بل بالعكس فاننا نعتقد أن أية اكتشافات علمية عظيمة لا بد وأن تمر
بهذه المرحلة التى سوف نطلق عليها اسم « النظرية » للوصفية والتى سوف
تشكل المرحلة الاولى لاية نظرية ، على الاقل فى المجال الذى يهمنى (مجال
علم التشكيلات الاجتماعية) .

من هنا يمكننا - بل ويجب علينا - أن نعتبر هذه المرحلة مرحلة
انتقالية وضرورية لتطور النظرية نفسها . هذه المرحلة الانتقالية سوف
أطلق عليها مصطلح : « نظرية وصفية » ، مع اظهار أن هذا التالف بين
مزين المصطلحين يساوى نوعا من « التناقض » ، وبالفعل لا يتفق مصطلح
« نظرية » بنعت « وصفية » المجاور له ، وهذا معناه بدقة أن :

١ - أن « النظرية الوصفية » هى بالفعل ، ودون أى شك ، بدء
للنظرية الحقيقى ولكن .

٢ - الشكل « الوصفى » للنظرية يتطلب ، نتيجة لهذا التناقض تطورا
للنظرية يتجاوز شكل « الوصف » .

ولنوضح فكرتنا بالرجوع الى موضوعنا الحالى وهو الدولة . عندما
نقول أن « النظرية » الماركسية المتاحة لنا بشأن الدولة تبقى جزئيا
« وصفية » فهذا يعنى قبل كل شئ أن هذه « النظرية » الوصفية هى بدون
أى شك ، البداية نفسها للنظرية الماركسية للدولة ، وأن هذه البداية تعطينا
الاساس ، أى المبدأ الحاسم لاي تطور لاحق للنظرية .

اننا نرى ان النظرية الوصفية في الدولة صحيحة حقاً ، حيث أننا نستطيع ان نعيم تطابقاً بين التحديد الذي تعطيه هذه النظرية لموضوعها والكم الهائل من الوقائع الملحوظة في ميدانها ، هكذا فان تعريف الدولة كدولة طبقات (أو طبقية) والموجود في جهاز الدولة القمى يضى لنا بوضوح كامل جميع الومانع الملحوظة في الانظمة المتعددة للقمع ايا كانت ماسمها من محارب يونية ١٨٤٨ وكومونة باريس ، الى الاحد للدامى و بروجراد و ١٩٠٥ ، المقاومة ، أحداث « شارون » ، الفرنسية ، الخ ٠٠ حتى قداخلات الرقابة التى منعت كتاب « الراهبة » ، للفيلسوف الفرنسى « ديدرو » ، أو مسرحية « جاتى » ، عن « فرانكو » ، كما انها تضى جميع الأشكال المباشرة وغير المباشرة لاستغلال وابادة الجماهير (في الحروب الاستعمارية) ، كما انها تضى هذه السيطرة الخفية اليومية حيث تنفجر ، على سبيل المثال فى أشكال الديمقراطية السياسية ، ما اسماء لينين بعد ماركس ، فيكناورية البورجوازية ٠

الا ان النظرية الوصفية للدولة تمثل مرحلة فى تكوين النظرية التى تتطلب هى نفسها تجاوز هذه المرحلة ، ذلك لانه جلى أن هذا التحديد لو كان يعنى بما يساعدها فى التعرف على وقائع القمع بأن ننسبها الى الدولة كجهاز للقمع ، فليس الا نوعاً خاصاً من الومضوح سوف نتكلم عنه فيما بعد بمد وضوح « نعم هو كذلك » ، انه حقيقى ، ! ان تراكم الوقائع التى تنسدرج تحت تعريف الدولة ، لا يدفع للامام حقاً هذا التعريف ، أى النظرية العلمية للدولة ، وان كان يزيد ما وضوحاً ، والا فان النظرية الوصفية تجازف اذا أوقفت عند هذا الحد بأن تعوق التطور اللازم للنظرية ، ومن هنا فاننا كى نطور النظرية الوصفية الى النظرية فى حد ذاتها ونفهم بعمق أكثر آلية الدولة من خلال تاديتها لوظيفتها ، يجب أن نضيف بعض الشئ الى النظرية الكلاسيكية للدولة كجهاز للدولة ٠

اساس النظرية الماركسية للدولة :

هناك نقطة هامة يجب توضيحها فى البداية وهى أن الدولة وكيانها داخل جهازها ليس لها معنى الا من خلال وظيفتها كسلطة للدولة ٠

كل صراع الطبقات السياسى يدور حول الدولة ٠ بمعنى حول السيطرة أى الاستيلاء والاحتفاظ بسلطة الدولة عن طريق طبقة أو تحالف طبقات أو اجزاء من طبقات ٠ من هنا يجب أن نميز بين سلطة الدولة من جهة بمعنى الاحتفاظ بالسلطة أو الاستيلاء عليها والذى هو هدف الصراع الطبقي لاسياسى ، وجهاز الدولة من جهة اخرى ٠

من المعروف أن جهاز الدولة بإمكانه أن يحتفظ بمكانة كما اثبتت ذلك « الثورات » البورجوازية في القرن ١٩ في فرنسا (١٨٣٠ ، ١٨٤٨) أو الانقلابات (الثاني من ديسمبر ، مايو ١٩٥٨ ، ... - حطت الدولة) انهيار الامبراطورية ١٨٧٠ وانهيار الجمهورية الثالثة في ١٩٤٠) أو الصعود للسياسي للبورجوازية الصغيرة (١٨٩٠ - ١٨٩٥ في فرنسا) دون أن يتأثر جهاز الدولة أو يتغير : جهاز الدولة يبقى قائما رغم الأحداث السياسية المؤثرة في السيطرة على سلطة الدولة .

حتى بعد الثورة الاجتماعية كالتى حدثت في ١٩١٧ ، احتفظ جزء كبير من جهاز الدولة بمكانه مع استحواذ ائتلاف البروليتاريا وفقراء الفلاحين على سلطة الدولة وجهازها مثلما ردد لينين ذلك مرارا . يمكننا ان نقول ان هذا التمييز بين سلطة الدولة وجهاز الدولة يشكل جزءا من النظرية الماركسية للدولة وبشكل واضح منذ كتابه : ١٨ برومير وصراع الطبقات في فرنسا .

لكي نلخص اذن « النظرية الماركسية للدولة » يمكننا ان نقول ان الماركسيين التقليديين اكدوا دائما على ان :

١ - الدولة هي الجهاز القمى للدولة .

٢ - يجب التمييز بين سلطة الدولة وجهاز الدولة .

٣ - هدف صراع الطبقات ينصب على سلطة الدولة وبالتالي استخدام الطبقات (او ائتلاف الطبقات او اجزاء من الطبقة) المتبوية سلطة الدولة لجهاز الدولة تبعا لاهدافها الطبقية .

٤ - يجب على البروليتاريا الاستيلاء على سلطة الدولة حتى تهدم جهاز الدولة البورجوازي القائم وكمرحلة أولى تستبدله بجهاز دولة مختلف تماما ، بروليتارى ، ثم في المرحلة التالية ينفذ التطور الجذرى وهو تدمير « الدولة » (نهاية سلطة الدولة وكافة اجهزة الدولة) .

بالنسبة لوجهة النظر السابقة ليس لدينا جديد لنضيفه الى « النظرية الماركسية للدولة » ، ولكن يبدو لنا أنها ، رغم استكمالها تظل وصفية ، على الرغم من انها تظل تحتوى على عناصر معقدة ومميزة لا يمكن فهم وظيفتها ودورها دون اللجوء الى تعميق نظرى اضافى .

الاجهزة الايديولوجية للدولة :

ما ينبغي ان يضاف الى « النظرية الماركسية » عن الدولة هو اذن شئ آخر .

علينا هنا ان نتقدم بحذر وحرص في هذا المجال الذى سبقنا فيه منذ زمن طويل الماركسيون الكلاسيكيون ولكن دون ان ينظموا بشكل تنظيري للنتائج الحاسمة التى تفرضها تجاربهم وخطواتهم . لقد ظلت في الحقيقة تجاربهم وخطواتهم في المقام الاول في مجال الممارسة السياسية .

لقد تعامل الماركسيون التقليديون خلال ممارستهم السياسية مع الدولة على انها اكثر تعقيدا من التعريف الذى عرفته به « النظرية الماركسية للدولة » ، حتى ومى على صورتها المكتملة كما اوضحنا فيما سبق .

لقد عرفوا هذا التعقيد من خلال ممارستهم الا انهم لم يعبروا عنه من خلال نظرية تتلام وهذا التعقيد (١) . اود اعطاء صورة موجزة لهذه النظرية المناسبة من خلال الاطروحة التالية :

من أجل السير قدما بنظرية الدولة يلزم علينا ان نعى جيدا ليس فقط التمايز بين سلطة الدولة وجهاز الدولة ، بل ايضا حقيقة اخرى تتبع بشكل واضح جهاز الدولة (القمى) ولكنها لا تتداخل معه ، هذه الحقيقة نسميها تبعا لمفهومها :

الاجهزة الايديولوجية للدولة .

ما هى الاجزة الايديولوجية للدولة ؟

ليس هناك وجه للخلط بين الاجهزة الايديولوجية للدولة والجهاز القمى للدولة . يشتمل جهاز الدولة في النظرية الماركسية على : الحكومة ، الجهاز الادارى ، الجيش ، الشرطة ، المحاكم ، السجون . الخ ، التى تشكل ما نطلق عليها الجهاز القمى للدولة وكلمة قمى تشير الى ان جهاز الدولة المذكور يستمرى بالعنف في تادية وظيفته غالبا (لان القمع ، على سبيل المثال ، الادارى ، بامكانه ان يتخذ اشكالا غير مادية) .

آل يعتبر جرائم الوحيد الذى اتبع هذا الأسلوب الذى انتهجناه . كان لديه هذا الاعتقاد ان الدولة لا تنحصر في كونها جهازا قميا للدولة ولكنها شاملة على حد قوله مؤسسات « المجتمع المدنى » ، الكتيبة المدارس ، النقابات ، الخ . للاست جرائم مددا من مؤسسات « المجتمع المدنى » ، الكتيبة ، المدارس ، النقابات ، الخ . للاست جرائم لم يظلم حدوده التى ظلت ملحوظات جادة ولكن جزئية .

اننا نعنى بالاجهزة الايديولوجية للدولة عددا من الوقائع تبجو لشاهد العيان متخذة شكل المؤسسات التمايزة والمتخصصة . وسوف نعريض قائمة تجريبية تتطلب بالطبع الفحص التفصيلي والاختبار والتصحيح والتعديل . وبالرغم من المآخذ التي يمكن ان تثيرها الا اننا يمكننا ان نعتبر هذه المؤسسات المذكورة في القائمة التالية كاجهزة ايديولوجية للدولة مع ملاحظة ان ترتيب القائمة ليست له اية دلالة خاصة .

- الجهاز الايديولوجي للدولة الديني (نظام الطوائف في الكنيسة) .
- الجهاز الايديولوجي للدولة المدرسي (نظام المدارس المتعددة الحكومة والخاصة) .

- الجهاز الايديولوجي للدولة العائلي (والعائلة بالطبع لها وظائف اخرى غير ذلك فهي لها دور في اعادة انتاج قوة العمل ، كما انها ، تبعا لانماط الانتاج ، وحدة انتاج و (أو) وحدة استهلاك) .

- الجهاز الايديولوجي للدولة القضائي (القضاء يتبع في نفس الوقت الجهاز (القمعي) للدولة وكذلك نظام الاجهزة الايديولوجية للدولة) .

- الجهاز الايديولوجي للدولة السياسي (النظام السياسي بما في ذلك الاحزاب المختلفة) .

- الجهاز الايديولوجي للدولة النقابي .

- الجهاز الايديولوجي للدولة للاعلام (صحافة ، اذاعة - تليفزيون ، النخ) .

- الجهاز الايديولوجي للدولة الثقافي (الآداب ، الفنون الجميلة ، الانشطة الرياضية) .

كنا نقول انه ليس هناك مجال للخلط بين الاجهزة الايديولوجية للدولة والجهاز القمعي للدولة ، فما الذي يشكل الاختلاف بينهما ؟

أولا : يمكننا ان نلاحظ ان هناك جهازا واحدا (قمعي) للدولة في حين هناك عدة اجهزة ايديولوجية للدولة واذا افترضنا وجود وحدة تشكل جسما واحدا لهذا التعدد للاجهزة الايديولوجية للدولة فان ذلك لا يبدو على التو ظاهرا .

ثانيا : يمكننا أيضا أن نستنتج أن جهاز الدولة (القمعي) موحد ، يتبع باكملة الميدان العلني أو العام ، في حين ان الجزء الاكبر من الاجهزة

الايديولوجية للدولة في تبعثرها الظاهر تتبع على العكس الميدان الخاص .
فالكنايس خاصة وكذلك الاحزاب ، النقابات ، العائلات ، بعض المدارس ،
معظم الجرائد ، المشاريع الثقافية الخ . .

اذا تركنا جانبا الآن الملاحظة الاولى ، فان الملاحظة الثانية ستثير
بالطبع لدى القارئ تساؤلا : بأى حق اذن نعتبر كاجهزة ايديولوجية
للدولة ، مؤسسات هي في معظمها لا تحمل صفة العمومية بل هي بكل بساطة
مؤسسات خاصة . ولقد تنبأ جرامشى كماركسى واع بهذا الاعتراض أن
التفرقة بين العام والخاص هل تمييز متضمن في اطار التشريع البورجوازي
ويعمل بها حيث يمارس هذا التشريع « سلطاته » .

أما في مجال الدولة فهي خارج هذا التشريع لان الدولة « فوق
القضاء » : الدولة ، التي هي دولة الطبقة السائدة فهي لا عامة ولا خاصة
بل هي شرط لكل تفرقة بين العام والخاص .

ولنطبق الآن ذلك على الاجهزة الايديولوجية للدولة فسنجد انه
دا يهمننا كثيرا اذا كانت المؤسسات التي تحققها هي عامة أو خاصة ، المهم
هو دورها .

فهناك مؤسسات خاصة تؤدي دورها على اكمل وجه كاجهزة
ايديولوجية للدولة ويكفى لاثبات ذلك التحليل الاكثر دقة لاي من هذه
الاجهزة .

ولنأتى لما هو أهم وهو ما يفرق بين الاجهزة الايديولوجية للدولة
وجهاز الدولة (القمعي) : هذا التباين الاساسى وهو ان الجهاز القمعي
للدولة يدور بالعنف اما الاجهزة الايديولوجية للدولة فهي تدور بالايديولوجية
بامكاننا أن نحدد أكثر تصحيحا لهذا التباين ، أن نقول ان في الواقع
كل جهاز للدولة سواء كان قمعيا أو ايديولوجيا يدور بالعنف والايديولوجية
في آن واحد ولكن مع فارق هام جدا يمنع من الخلط بين الاجهزة الايديولوجية
للدولة وجهاز الدولة (القمعي) . ذلك لأن جهاز الدولة (القمعي) يعمل
لمصلحته بشكل ترجيحى ضخم للعنف بما في ذلك العنف البدنى مع العمل
بالايديولوجية بشكل ثانوى . (ليس هناك جهاز قمعي خالص) . على
سبيل المثال : الجيش والشرطة يعملان بالايديولوجية من اجل ان يضمنا
على السواء : تنساقهما الداخلى واعادة انتاجهما عن طريق « القيم » التي
يبثونها .

بنفس الشكل ولكن بالعكس نقول نفس الشيء عن الاجهزة
الايديولوجية للدولة انها من أجل مصلحتها تعمل أو تدور عن طريق ترجيح

ضخم للايديولوجية مع استخدام العنف بشكل ثانوى وفي اقل الحدود وبشكل مخفف ومستتر بل ورمزى . (ليس هناك جهاز ايديولوجى خالص) . هكذا المدرسة والكنائس « تقيم » عن طريق مناهج ملائمة عقوبات ، استثناءات اختبارات ، الخ . . . ليس فقط لموظفيها بل لرعاياها ايضا . وهكذا الاسرة . . . وكذلك جهاز الدولة الايديولوجى الثقافتى (الرقابة كمثال واحد نذكره) الخ هل يلزمنا أن نذكر أن هذا التعريف « بالوظيفة » الثنائية (بالشكل الترجيحى والشكل الثانوى) للقمع والايديولوجية سواء بالنسبة لجهاز الدولة (القمعى) أو الاجهزة الايديولوجية للدولة مما يسمح لنا بأن نفهم أنه هناك دائما تشابك لنسيج من التركيبات في غاية الرهافة ، ظاهر أو ضمنى ، بين دور جهاز الدولة (القمعى) ودور الاجهزة الايديولوجية للدولة ؟ والحياة اليومية تعطينا أمثلة لا حصر لها ، توجب علينا أن ندرسها بالتفصيل لنتخطى هذه الملاحظة العابرة البسيطة .

هذه الملاحظة تهدينا لفهم ما يشكل وحدة هذا الجسم الذى يبدو متفرقا للاجهزة الايديولوجية للدولة . فاذا كانت الاجهزة الايديولوجية للدولة تعمل بشكل ترجيحى ضخم للايديولوجية فان ما يوحد هذا التنوع هو نفسه هذا الاسلوب الذى تنتهجه في تأدية عملها بحيث أنها تحرص على ان تكون الايديولوجية التى تعمل أو تدور بها هذه الاجهزة موحدة بالرغم من تنوعها وتناقضاتها ، تحت الايديولوجية السائدة التى هى ايديولوجية « الطبقة السائدة » .

إذا أردنا أن نعتبر أنه من الناحية المبدئية « الطبقة السائدة » هى التى تتولى سلطة الدولة (بشكل صريح أو في اكثر الاحيان عن طريق ائتلافات طبقيّة أو اقسام من طبقات) وتملك بالتالى جهاز الدولة (القمعى) يمكننا ان نسلم (او نقبل) ان نفس الطبقة السائدة تكون هى الفاعلة في الاجهزة الايديولوجية للدولة بقدر ما تكون الايديولوجية السائدة محققة خلال الاجهزة الايديولوجية للدولة بشكل نهائى على الرغم حتى من تناقضاتها . طبعاً هناك اختلاف كبير بين التصرف عن طريق القوانين والقرارات في الجهاز (القمعى) للدولة وبين التصرف عن طريق الايديولوجية السائدة في الاجهزة الايديولوجية للدولة . ويجب علينا ان نتعمق في تفاصيل هذا الاختلاف ، الا ان كل هذا لن يخفى واقع تماثل عميق ، وحسب علمنا انه ليست هناك اية طبقة يمكنها ان تستولى على السلطة بشكل ثابت دون ان تمارس في نفس الوقت هيمنتها على وفي الاجهزة الايديولوجية للدولة . ولنذكر كمثال ودليل واحد : الهاجس الذى كان يشغل لينين من اقامة ثورة في الجهاز

الايدىولوجى المدرسى للدولة حتى تتمكن البروليتاريا السوفيتية ، والتي كانت مسيطرة حينذاك على سلطة الدولة ، من ضمان مستقبل ديكتاتورية البروليتاريا والانتقال للاشتراكية (٧) .

هذه الملاحظة الاخيرة تساعدنا على فهم ان الاجهزة الايدىولوجية للدولة يمكن ان تكون ليس فقط هدف رهان صراع الطبقات بل ايضا موقعه وفى كثير من الاحيان موقع اشكال محتدمة من صراع الطبقات .

الطبقة (أو ائتلاف الطبقات) التى هى فى السلطة لا تسق القانون بسهولة فى الاجهزة الايدىولوجية للدولة كما تفعل فى جهاز الدولة (القمعى) ولا يرجع ذلك فقط الى ان الطبقات السائدة قديما يمكنها ان تحتفظ طويلا بمكانتها القوية فى الاجهزة الايدىولوجية ولكن ايضا لان مقاومة الطبقات المطحونة المستغلة يمكنها ان تجد الوسيلة والفرصة لتعبر عن نفسها فيها اما عن طريق استخدام التناقضات الموجودة فى هذه الاجهزة أو عن طريق حصولها بالصراع على مراكز نضال (٨) .

(٧) فى ١٩٢٧ كتبت كروبسكايا فى نص مثير لـ الطريق الذى عبرت) قصة جهود لينيه اليائسة لـ اعتبرته فشله .

(٨) ما قيل هنا بشكل موجز عن صراع الطبقات فى الاجهزة الايدىولوجية للدولة لا ينهى بالطبع مسألة الصراع الطبقي .

من أجل التطرق لهذه المسألة يجب ان نضع فى اعتبارنا مبدئين :

المبدأ الاول صاغه ماركس فى مقدمة « المساهمة » : « عندما ينظر الى هذه الانقلابات (ثورة اجتماعية) يجب التمييز بين الانقلاب المادى - الذى يمكن تقييمه بشكل علمى دقيق - لشروط الانتاج الاقتصادية والاشكال التشريعية ، السياسية ، الدينية ، الفنية أو الفلسفية التى يعى بها البشر هذا الصراع ويمضون به حتى النهاية » . الصراع الطبقي اذن يعبر عن نفسه ويمارس فى اشكال ايدىولوجية ، اذن ايضا فى الاشكال الايدىولوجية للاجهزة الايدىولوجية للدولة . الا ان صراع الطبقات يتجاوز بكثير هذه الاشكال ولانه يتجاوزها فان صراع الطبقات المستغلة يمكن ايضا ان يمارس فى اشكال الاجهزة الايدىولوجية للدولة وبالتالي ان يقبل سلاح الايدىولوجية المستخدم ضده الى سلاح ضد الطبقات التى فى السلطة .

وهذا طبقا للمبدأ الثانى : يتجاوز الصراع الطبقي أجهزة الدولة الايدىولوجية لان جذوره لا تكمن فى الايدىولوجية بل فى البنية التحتية وعلاقات الانتاج التى هى علاقات استغلال كما انها تشكل اساس علاقات الطبقات .

وإذا كانت الأطروحة التي قدمناها لا أساس من الصحة ، نستطيع أن نؤكد النظرية الماركسية الكلاسيكية للدولة ، بإضافة الدقة على أحد نقاطها . ولنقل اننا يجب أن نفرق بين سلطة الدولة من جانب (من المستولى عليها) وجهاز الدولة من جانب آخر . لكننا سنضيف أن جهاز الدولة يشمل هيكلين : هيكل المؤسسات التي تمثل الجهاز القومي للدولة من جهة ومن جهة أخرى هيكل المؤسسات التي تمثل الأجهزة الأيديولوجية للدولة .

تبعاً لذلك فإننا بالضرورة سنطرح السؤال التالي :

ما هو بالضبط حجم دور الأجهزة الأيديولوجية للدولة ؟ من أين تأتي أهميتها ؟

وبمعنى آخر : ما الذي تمثله « وظيفة » هذه الأجهزة الأيديولوجية للدولة والتي لا تؤدي وظيفتها بالقمع ولكن بالأيديولوجية ؟

حول إعادة إنتاج علاقات الإنتاج

نأتى هنا لإجابة السؤال الذي طرحناه في بداية موضوعنا ألا وهو :

كيف نضمن إعادة إنتاج علاقات الإنتاج ؟

اننا نضمن ذلك في جزء كبير منه (٩) عن طريق البنية الفوقية القضائية - السياسية والأيديولوجية . ولكن بما اننا قررنا انه من الضروري أن نتعدى هذه اللغة الوصفية فإننا سنقول : انها مضمونة في جزء كبير منها (٩) عن طريق ممارسة سلطة الدولة من خلال أجهزة الدولة ، الجهاز القومي من جهة والأجهزة الأيديولوجية للدولة من جهة أخرى .

ولنضع في اعتبارنا اذن ما قلناه سابقاً من خلال هذه النقاط الثلاث الجامعة :

١ - جميع أجهزة الدولة تؤدي وظيفتها على السواء بالقمع وبالأيديولوجية مع فارق أن الجهاز القومي للدولة يؤدي وظيفته بترجيح للقمع في حين أن الأجهزة الأيديولوجية للدولة تؤدي وظيفتها بترجيح للأيديولوجية .

(٩) في جزء كبير منه « لأن إعادة الإنتاج علاقات الإنتاج تتأتى من طريق مادية

عملية الإنتاج وعملية التداول arculation لكننا يجب ألا ننسى أن العلاقات

الأيديولوجية لها وجود مباشر في هذه العمليات .

٢ - في حين ان الجهاز القمعى للدولة يمثل وحدة متكاملة اعضائها المختلفة متمركزة تحت وحدة آمرة الا وهى سياسة صراع الطبقات التى يطبقها الممثلون السياسيون للطبقات السائدة المالكة لسلطة الدولة .
الاجهزة الايديولوجية للدولة متعددة ومستقلة عن بعضها بل انها يمكن ايضا ان تكون حقلا موضوعيا لتناقضات معبرة باشكال احيانا تكون محدودة و احيانا اخرى تكون واسعة ، عن تاثيرات الصدام بين صراع الطبقات الرأسمالية وصراع الطبقات البروليتارية وكذلك اشكالهم الثانوية .

٣ - في حين ان وحدة الجهاز القمعى للدولة يحققها تنظيمها المتمركز الموحد تحت ادارة ممثلى الطبقات الحاكمة الذين يمارسون سياسة صراع الطبقات للطبقات الحاكمة ، نجد ان وحدة الاجهزة المختلفة الايديولوجية للدولة تتحقق في اغلب الاحيان في اشكال متناقضة عن طريق الايديولوجية السائدة التى هى ايديولوجية الطبقة السائدة .

على ضوء هذه المواصفات يمكننا اذن ان نعرف اعادة انتاج علاقات الانتاج (١٠) وفق نوع من « تقسيم العمل » .

وظيفة الجهاز القمعى للدولة تتمثل أساسا في انه جهاز قمعى يضمن عن طريق القوة (البدنية أو غيرها) الشروط السياسية اللازمة لاعادة انتاج علاقات الانتاج والتى هى في النهاية علاقات استغلالية .

ولا يشارك فقط جهاز الدولة بنصيب كبير في اعادة انتاج نفسه (حيث توجد في الدولة الرأسمالية سلالات من رجال السياسة . سلالات من العسكريين ، الخ .) ولكنه يضمن ايضا عن طريق القمع (بدءا من القوة البدنية العنيفة الى ابسط الاوامر والمحظورات الادارية والرقابة العلنية او الخفية) الشروط السياسية لممارسات الاجهزة الايديولوجية للدولة . وعما للذان يضمنان ، بنصيب كبير ، اعادة انتاج علاقات الانتاج تحت درع الجهاز القمعى للدولة . وهنا يلعب ، بشكل قوى ، دور الايديولوجية السائدة ، ايديولوجية الطبقة السائدة المسيطرة على سلطة الدولة .
والايديولوجية السائدة هى التى تضمن « التجانس » ، (القبيح الوجه احيانا) بين الجهاز القمعى للدولة واجهزته الايديولوجية وبين الاجهزة الايديولوجية المختلفة للدولة .

(١٠) بالنسبة لما يخص اعادة الانتاج الذى يشارك فيه الجهاز التبعي للدولة والاجهزة الايديولوجية للدولة .

يقودنا هذا التعدد في الأجهزة الايديولوجية للدولة على أساس دورها الموحد والمشارك في إعادة انتاج علاقات الانتاج ، الى الفرضية التالية : لقد ذكرنا أنه في التشكيلات الاجتماعية الرأسمالية المعاصرة هناك عدد مرتفع نسبيا من الأجهزة الايديولوجية للدولة : الجهاز المدرسي ، للديني ، الأسري ، السياسي ، النقابي ، الاعلامي ، الثقافي وغيرها من الأجهزة الايديولوجية .

وبما أنه في التشكيلات الاجتماعية الخاصة بنمط الانتاج (المعروف أو المتعارف عليه بالقطاعي) فاننا نستنتج أنه على الرغم من وجود جهاز قمعي وحيد للدولة ومن الناحية الشكلية مشابه ، ليس فقط منذ الملكية المطلقة ولكنه أيضا منذ أوائل الدولة القديمة المعروفة ، لما نعرفه الآن ، إلا أن عدد الأجهزة الايديولوجية للدولة كان أقل وكياناتها المستقلة كانت مختلفة . اننا نستنتج على سبيل المثال أنه في العصور الوسطى كانت للكنيسة (جهاز الدولة الايديولوجي الديني) عدد من الوظائف تؤديها اليوم أجهزة أيديولوجية للدولة عديدة ومتفرقة وجديدة بالنسبة للماضي الذي نحن بصدد ذكره ، وبخاصة وظائف تعليمية وثقافية ، الى جانب الكنيسة كان هناك الجهاز الايديولوجي للدولة الأسري والذي كان له دور ذو أهمية و وزن كبير دون أي مقياس مع دورها في التشكيلات الاجتماعية الرأسمالية ، ولم تكن الكنيسة والاسرة ، رغم المظاهر العامة ، الأجهزة الايديولوجية الوحيدة للدولة ، كان هناك أيضا جهاز أيديولوجي سياسي للدولة (« الفئات العامة » ، البرلمان ، الانقسامات الطائفية والأحلاف السياسية ، أسلاف الأحزاب السياسية الحديثة وكل النظام السياسي للمقاطعات الحرة التي سبقت ظهور المدن في فرنسا ، ثم المدن) . كما كان هناك أيضا جهاز أيديولوجي « ما قبل النقابي » ، اذا كان بإمكاننا أن نستخدم هذا المصطلح السابق لزمناه لنطلقه على الاتحادات القوية « الأخوية » ، للتجار ، رجال المال ، الحرفيين ، الخ ، في العصور الوسطى . النشر والاعلام عرفا تقديم لا جدال فيه وكذلك العروض التي سبقت المسرح الحديث في أوروبا وكانت في البداية أجزاء مكملة للكنيسة ثم استقلت بالتدريج عنها . إلا أنه في الفترة التاريخية السابقة على الرأسمالية والتي نحن بصدد فحص خطوطها العريضة فانه من المؤكد أنه كان هناك جهاز أيديولوجي للدولة سائد وهو الكنيسة ، والذي تركزت فيه ليس فقط الوظائف الدينية بل أيضا التعليمية وجزء لا بأس به من الوظائف الاعلامية والثقافية .

إذا كان كل الصراع الايديولوجي في القرن ١٦ الى ق ١٨ ومنذ أول هذه لحركة الاصلاح ، تركزت في الصراع ضد الكنيسة والدين فانه لم يكن

محض صدفه ولكنه ينبع من الوضع السائد للجهاز الايديولوجى للدولة
الدينى .

لم يكن هدف ونتيجة الثورة الفرنسية الاساسى أن تنقل قبل كل
شئ سلطة الدولة من حوزة الأرستقراطية الاقطاعية الى حوزة البورجوازية
الرأسمالية - التجارية وتحطم جزئيا جهاز الدولة القمعى القديم وتستبدل
به جهازا جديدا (مثال : الجيش القومى الشعبى) بل كان الهدف أيضا
التصدى للجهاز الايديولوجى للدولة رقم (١) أى الكنيسة . ومن هنا
أتى التآليف المدنى لرجال الدين ، مصادرة ممتلكات الكنيسة وخلق
أجهزة أيديولوجية للدولة جديدة لتحل محل الجهاز الايديولوجى للدولة
الدينى فى دوره المسيطر . من الطبيعى أن الاشياء لم تقيم من تلقاء نفسها
بدليل « المعاهدة الدينية بين البابا والحكومة » Le Concordat

و « الردة الملكية » Ia Restauration والصراع الطبقي الطويل بين
الارستقراطية المالكة للأراضى والبورجوازية الصناعية على مجرى كل القرن
التاسع عشر من أجل ارساء الهيمنة البورجوازية على الوظائف التى كانت
تقوم بها الكنيسة فيما مضى : عن طريق المدرسة قبل كل شئ . ويمكننا
أن نقول أن البورجوازية اعتمدت على الجهاز الايديولوجى السياسى
الجديد للدولة ، الديمقراطى - البرلمانى المقام فى السنوات الاولى من
الثورة والذى تم تجديده بعد ذلك عقب صراعات حادة طويلة لعدة شهور
فى ١٨٤٨ وطوال عشرات السنوات بعد سقوط الامبراطورية الثانية من
أجل ضمان ليس فقط سيطرتها السياسية بل وسيطرتها الايديولوجية
اللازمة لاعادة انتاج علاقات الانتاج الرأسمالية .

ولذلك سوف نجازف ونقدم الاطروحة التالية : اعتقد أن الجهاز
الأيديولوجى للدولة الذى احدث وضعاً سائداً فى التشكيلات الرأسمالية
الناضجة عند انتهاء الصراع الطبقي السياسى والأيديولوجى العنيف ضد
الجهاز الايديولوجى للدولة السائد سابقا ، هو الجهاز الايديولوجى
المدرسى .

هذه الأطروحة يمكن أن تبدو مفارقة ، اذا كان حقيقيا أنه فى الاعتقاد
العام ، أى فى التمثيل الايديولوجى الذى حرصت البورجوازية أن تتمثله
وتقدمه للطبقات التى تستغلها ، كانما الجهاز الايديولوجى للدولة
السائد فى التشكيلات الاجتماعية الرأسمالية ليس هو المدرسة بل الجهاز
الايديولوجى السياسى للدولة بمعنى نظام الديمقراطية البرلمانية المصوب
بالانتخاب العام (أو التصويت العام) وصراعات الاحزاب .

الا أن التاريخ ، حتى القريب منه ، يوضح أن البورجوازية تمكنت ويمكنها جيدا أن ترضى بالاجهزة الايديولوجية السياسية للدولة المختلفة للديمقراطية البرلمانية : الامبراطورية الاولى أو الثانية ، الملكية الدستورية (لويس الثامن عشر ، شارل العاشر) ، الملكية البريطانية (لويس فيليب) ، الديمقراطية الرئاسية (ديجول) في فرنسا على سبيل المثال . أما في انجلترا فالأمور أكثر وضوحا كانت الثورة بشكل خاص ناجحة من وجهة نظر البورجوازية ، على عكس الثورة الفرنسية حيث قبلت البورجوازية نتيجة لحماية صغار النبلاء ، أن تعتلى السلطة عن طريق انتفاضات « الأيام الثورية » للفلاحين والرعاع المشهورة في ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، مما كلفها الكثير ، أما البورجوازية الانجليزية فهي استطاعت أن تتكالف مع الارستقراطية و « تتقاسم » معها سلطة الدولة واستخدام جهاز الدولة لفترة طويلة (السلام السائد بين جميع أولو العزم من الطبقات السائدة !)

في ألمانيا الأمور تبدو أكثر وضوحا بما انه تحت ستار جيش وشرطة الجهاز الايديولوجى السياسى للدولة وبتوجيه من أفراد ، دخلت البورجوازية الامبريالية (ورمزها « بيسمارك ») في التاريخ . من قبل أن تخترق جمهورية « ويمر » وتلجأ (أو تحتفى بـ) للفازية .

اذن فلدينا من الاسباب القوية لنعتقد أن وراء ألعيب الجهاز الأيديولوجى السائد للدولة والذي كان هو في الواجهة ، فان الجهاز الأيديولوجى للدولة التى احتل المقام الأول لدى البورجوازية بمعنى أنه كان الجهاز السائد هو الجهاز المدرسى والذي احتل في الواقع مكان الجهاز الأيديولوجى للدولة السائد قديما في وظائفه أى الكنيسة ، بل ويمكننا أن نضيف أن الثنائى « المدرسة - الأسرة » احتل مكان الثنائى « الكنيسة - الأسرة » .

لماذا يمثل الجهاز المدرسى ، الجهاز الايديولوجى للدولة السائد في التشكيلات الاجتماعية الرأسمالية وكيف يؤدي وظيفته ؟ سنكتفى في اللحظة الراهنة بأن نقدم التالى :

١ - جميع الاجهزة الايديولوجية للدولة ، أيا كانت تؤدي لنفس النتيجة : اعادة انتاج علاقات الانتاج بمعنى العلاقات الاستغلالية الرأسمالية .

٢ - كل منها يؤدي الى هذه النتيجة الوحيدة بطريقته الخاصة ، الجهاز السياسى عن طريق اخضاع الافراد للايديولوجية السياسية للدولة ، الايديولوجية « الديمقراطية » « غير المباشر » (برلمانية) أو « مباشرة »

(استفتائية أو فاشية) • الجهاز الاعلامى عن طريق اشباع المواطنين من خلال الصحافة ، الراديو ، التليفزيون ، بجرعات يومية من القومية (الوطنية) ، التعصب ، التحررية ، الخلقية ، الخ • وكذلك بالنسبة للجهاز الثقافى (دور الرياضة فى التعصب يأتى فى المقام الأول) الخ ، الجهاز الدينى عن طريق التذكير فى الخطب والوعظ والاحتفالات الاخرى الكبرى فى الميلاد والزواج والوفاء بأن الانسان ليس سوى رماد الا اذا أحب أخوته فى الانسانية) لدرجة أن يمد خده الآخر لمن صفعه • الجهاز الأسرى • الخ •

٣ - هذه النغمة الواحدة تعكرها أحيانا أصوات ناشزة متناقضة ، أصوات الطبقات السائدة قديما وأصوات البروليتاريا ومنظماتها • هذه النغمة الأيديولوجية للطبقة السائدة حاليا تتضمن الموضوعات الكبرى من انسانية أجدادنا العظام الذين من قبل المسيحية أقاموا المعجزة الاغريقية ثم قبل المسيحية عظمة روما المدينة الأبدية وغيرها من موضوعات المصلحة الخاصة والعامة ، الخ ••• القومية ، الخلقية والاقتصادية •

٤ - الا انه فى هذه النغمة هناك جهاز أيديولوجى للدولة يلعب الدور السائد بالرغم من أننا لا نعيه أبدا أى التفات لأن صوته خافت للغاية ، انها المدرسة ، فهي تأخذ الاطفال من جميع الطبقات الاجتماعية منذ الحضانه ، ومنذ الحضانه عن طريق الاساليب الحديثه والقديمة أيضا فانها تلقنهم خلال سنوات هى السنوات التى يكون فيها الطفل أكثر استعدادا للتأثر ، محصورا بين جهاز الدولة الأسرى وجهاز الدولة المدرسى ، تلقنهم مهارات مغلفة بالايديولوجية السائدة (الفرنسية ، الحساب ، التاريخ الطبيعى ، العلوم ، الأدب) أو بكل بساطة الايديولوجية السائدة فى شكلها الخام (أخلاق ، تربية مدنية ، فلسفية) وفى أواخر الاعدادية تقريبا يتخلف (يسقط) عدد كبير من الاطفال ، يفشل « فى الانتاج » : انهم العمال أو الفلاحين الصغار • جزء آخر من شباب المدارس يكمل تعليمه بقدر استطاعته ولكنه يتعثر فى منتصف الطريق ويتقلد وظائف الكوادر الصغيرة والمتوسطة ، الموظفون الصغار والمتوسطون ، البورجوازيون الصغار بشكل عام • جزء آخر يتمكن من الوصول الى القمم اما ليسقطوا فى النصف - بطالة الفكرية واما ليشكلوا ، الى جانب « مثقفى العامل الجماعى » ، رجال الاستغلال (رأسماليين ، اداريين) ، رجال القمع (الجندى ، رجال الشرطة ، السياسيون ، الاداريون) ومحترفى الايديولوجية (كهنة من كافة الاشكال ومعظمهم « علمانيون » ارتدوا الى الايمان) •

كل مجموعة تسقط في الطريق هي مزودة عمليا بالايديولوجية المناسبة للدور الذى يجب أن تقوم به في المجتمع الطبقي : وظيفة المستغل (ذو الضمير الوظيفي ، ذو الأخلاق ، الوطنى ، القومى ، ومشكل جيدا بحيث يكون لا سياسى) ، دور الرجل الاستغلالي (يعرف كيف يأمر ويتكلم مع العمال : « العلاقات الانسانية ») ، رجال القمع (يعرف كيف يأمر ويطاع دون مناقشة أو معرفة قيادة الغوغاء ببلاغة القادة السياسيين) أو محترفوا الأيديولوجية (معرفة معاملة الضمائر بالاحترام بمعنى الاحتقار ، الابتزاز ، الديماغوجية (أو الغوغائية) المناسبين المكيفين على نغمات الأخلاق ، الفضيلة ، السمو ، القومية ، دور فرنسا في العالم ، الخ) .

بالطبع هناك عدد من الفضائل المتعارضة (تواضع ، خضوع ، رضوخ من جهة ، وقاحة ، احتقار ، عجرفة ، ثقة ، تكبر بمعنى الحديث المتحذلق والبراعة) يمكن أيضا تعلمها من خلال الأسرة ، الكنيسة ، الجيش (التجنيد) ، في الكتب العظيمة (المتفق على عظمتها) ، في الأفلام وحتى في ملاعب الكرة .

ولكن ليس هناك أى جهاز أيديولوجى للدولة يتوافر لديه لأعوام عدة مستمعين اجباريا (ومجانا ، وهذا أقل ما في الأمر ٠٠) ٥ أيام أو ٦ أيام في الأسبوع ، بمقاييل ٨ ساعات في اليوم ، لجميع أطفال التشكيل الاجتماعى الرأسمالى ، إلا أنه عن طريق تعلم بعض المهارات المغلفة بالتلقين الكثيف لأيديولوجية الطبقة السائدة ، يتم إعادة انتاج علاقات انتاج تشكيل اجتماعى رأسمالى ، أى لعلاقات المستغل بالاستغلالي والاستغلالي للمستغل . الآليات المنتجة لهذه النتيجة الحيوية للنظام الرأسمالى هي بالطبع مستترة ومغطاة بأيديولوجية عن المدرسة سائدة على مستوى العالم ، بما أنها أحد الاشكال الاساسية للايديولوجية البورجوازية السائدة : أيديولوجية تقدم المدرسة كمحيط محايد ، خال من الأيديولوجية (ما دامت ٠٠ علمانية) أو من أرباب الضمائر المحترمين وحرية الأطفال التى هي مكفولة لهم (بكل ثقة) من أهلهم (الذين هم أيضا أحرار ، بمعنى أصحاب أطفالهم !) ويجعلونهم يتوصلون للحرية ، للأخلاق ، لمسئولية البالغين عن طريق اعطائهم المثل ، المعارف ، الأدب وفضائله « المحررة » .

ان الاعتذار ينبغى أن يوجه للمعلمين الذين وسط الظروف المروعة يحاولون الانقلاب ضد الأيديولوجية وضد النظام وضد الممارسات التى يدورون في رحاها ، عن طريق بعض الأسلحة التى يمكن أن يجدوها في

التاريخ والمعرفة التي يدرسونها • انهم شبه أبطال ، ولكنهم قليلون جدا ومعظمهم ليس عنده حتى بدايات الشك في « العمل » الذي يرغمه النظام (الذي يتجاوزهم ويسحقهم) على تأديته بل والادهى على التفانى في تأديته بكل ضمير واخلاص في المحافظة وانكاء هذا التمثيل الايديولوجى للمدرسة (بالمناهج الجديدة العظيمة !) الذى يجعل اليوم المدرسة شيئا طبيعيا ولازما وضروريا بل وحتى الى حد اعتباره احسانا لمعاصرينا أكثر مما كانت الكنيسة بالنسبة لأجدادنا منذ عدة قرون ، طبيعية وضرورية وكريمة (معطاءة) وفي الواقع فان الكنيسة حلت محلها اليوم المدرسة في وظيفتها كجهاز ايديولوجى سائد للدولة • وتتقاسم الاسرة معها هذا الدور كما كان الحال أيضا مع الكنيسة فيما مضى • من هنا يمكننا أن نؤكد أن الأزمة ، التي لا نظير لعمقها ، والتي تزعزع - على مستوى العالم - النظام المدرسى في كثير من الدول والمرتبطة في كثير من الاحيان بأزمة (كان « البيان » قد اشار اليها) تزعزع النظام الأسرى ، تتخذ معنى سياسيا اذا اعتبرنا أن المدرسة (والثنائى المدرسة - الأسرة) تشكل الجهاز الايديولوجى السائد للدولة ، جهازا يلعب دورا حاسما في تكرار انتاج علاقات الانتاج لنمط انتاج يهدد وجوده صراع الطبقات العالمى •

اقرأ في العدد القادم

قصص :

يوسف أبو رية - أحمد زغلول الشيطى - فخرى
البيب - عاطف سليمان - فوزى عبد المجيد شلبى -
عبد العزيز مشرى - محمد المريسى

الايديولوجية والأجهزة الايديولوجية للدولة (الجزء الثاني)

لويس التوسجر

ترجمة : عايذة لطفي

مراجعة وتقديم : د. أمينة رشيد

ما يخص الايديولوجية

عندما تقدمنا للامام بمفهوم الجهاز الايديولوجي الخاص بالدولة ،
وحيثما قلنا ان الاجهزة الايديولوجية للدولة « تعمل بالايديولوجية » فاننا
ذكرنا حقيقة ملينا ان نتناولها بوضع كلمات ، الا وهي الايديولوجية .

من المعروف ان مصطلح : الايديولوجية صاغه كابانيس Cabanis
« ودستت دي تراسي » Destutt de Tracy واصنقاؤهم الذين
خصصوا بهذا لموضوعه النظرية (الوراثة) للأفكار . وحين أعاد
ماركس ، بعدها بخمسين عاما . استخدام المصطلح ، اعطاه منذ
أوائل أعماله معنى آخر تماما . الايديولوجية هي اذن نظام الأفكار ،
التصورات المسيطرة على فكر انسان او جماعة اجتماعية . وكان
المرادع الايديولوجي — السياسي الذي خاضه ماركس منذ مقالته

في مجلة رينان Gazette Rhenane قد واجهه للتو بهذا الواقع
وارغمه على تعميق احداسه الاولى .

« لا اننا نميطم منا بمفارقة تشر الدهشة الى حد كبير . كل شيء

كان يحمل ماركس على تشكيل نظرية للأيديولوجية . والحقيقة أن « الأيديولوجية الألمانية » يعطينا ، بعد مخطوطات ٤٤ . نظرية مريحة للأيديولوجية ولكنها .. ليست ماركسية (سنرى ذلك في اللحظات التالية) .

أما بالنسبة لرأس المسال فإنه إذا كان يحتوى على عدد لا بأس به من الإشارات لنظرية للأيديولوجيات (أكثرها وضوحا : أيديولوجية الاقتصاديين العامين) ، إلا أنه لا يحتوى على هذه النظرية بمعناها التى تتوقف فى جزء كبير منها على نظرية عامة للأيديولوجية . مسبار بالمخاطرة عن طريق تقديم رسم تخطيطى بيانى وأولى . والأطروحات التى سأقدمها هنا ليست بالطبع مرتجلة ، لكنها لا يمكن أن يتم إثباتها وتأكيدهما أى تأييدها أو تصحيحها إلا عن طريق الدراسات والتجليلات المستفيضة .

الأيديولوجية لا تاريخ لها

نبدأ أولا بكلمة نعرض فيها السبب الرئيسى الذى يبدو لى أن لم يكن يؤسس فهو على الأقل يجيز مشروعا لنظرية للأيديولوجية عامة وليست نظرية للأيديولوجيات الخاصة التى تعبر دائما بها كانت أشكالها (دينية ، أخلاقية ، قانونية ، سياسية) عن الأوضاع الطبقة .

والتنظير للأيديولوجيات يجب أن يتم على ضوء هذه العلاقة المزدوجة التى أشرنا إليها . حيث بإمكاننا أن نرى أن نظرية الأيديولوجيات تركز أساسا (أو فى نهاية المطاف) على تاريخ التشكيلات الاجتماعية ، وأنماط الانتاج المزدوجة فى هذه التشكيلات الاجتماعية وصراعات الطبقات المنتشرة فيها . وهكذا فمن الواضح أنه ليس هناك مجال لنظرية للأيديولوجيات بصورة عامة حيث أن الأيديولوجيات (تسند تعريفها على ضوء العلاقة المزدوجة المشار إليها قبلا : اقليمية أو طبقية) لها جميعا تاريخ ، يتخذ تحديده فى المقام الأخير موقعه خارج الأيديولوجيات مع أنه يخصها .

فى المقابل ، إذا تمكنت من المضى فى مشروع نظرية الأيديولوجية بصورة عامة وإذا كانت هذه النظرية أحد العناصر التى تعتمد عليها نظريات الأيديولوجيات فإن هذا يقتضى منا عرضا يبدو مفارقا إلى حد ما وهو ما أعلنه فى الكلمات الآتية : الأيديولوجية لا تاريخ لها .

نعرف أن هذه العبارة موجودة بحدافيرها في نص عن الأيديولوجية الألمانية (١) . لقد أطلق ماركس نفس العبارة متحدثا عن الميتافيزيقا مثلا أنها لا تاريخ لها كالأخلاق (وبالطبع : الأشكال الأخرى للأيديولوجية) في « الأيديولوجية الألمانية » . تظهر هذه العبارة في سياق وضعى صريح . حيث تفهم الأيديولوجية على أنها وهم خالص ، حلم خالص ، أى عدم . كل واقعها بكن خارجها . تفهم الأيديولوجية أنن على أنها تكوين خيالى يتشابه قانونه تماما مع القانون التنظري للحلم لدى الكتاب الذين سبقوا فرويد . الحلم بالنسبة لهؤلاء الكتاب كان النتيجة الخالصة المستوحاه من « بقايا النهار » ، أى هى عدم ، وهى مقدمة على هيئة تركيب ونظام باعتبارى بل وأحيانا « معكوس » ، وباختصار « تسوده الفوضى » . كان الحلم بالنسبة لهم هو الخيالى الفارغ واللاشئ ، « المركب » اعتباريا ، مغمض أنعينين ، مع بقايا من الواقع الوحيد الممتلئ والإيجابى الا وهو واقع النهار . هذا هو بالضبط وضع الفلسفة والأيديولوجية (بما أن الفلسفة هنا هى الأيديولوجية بعينها) في « الأيديولوجية الألمانية » .

الأيديولوجية إذن بالنسبة لماركس هى تركيب خيالى ، حلم خالص ، فراغ وعيب ، مكونة من « بقايا النهار » من الواقع الوحيد الممتلئ والإيجابى الا وهو التاريخ الملموس الواقعى للأفراد الواقعيين والذين يصنعون وجودهم بشكل مادى . هكذا نجد أنه في « الأيديولوجية الألمانية » ، الأيديولوجية لا تاريخ لها بما أن تاريخها خارجها هناك حيث يكمن التاريخ الوحيد القائم الا وهو تاريخ الأمراد الملموسين في واقع الحياة ، الخ . في « الأيديولوجية الألمانية » إذن أطروحة أن الأيديولوجية لا تاريخ لها هى إذن أطروحة سلبية خالصة بما أنها تعنى في نفس الوقت أن :

١ — الأيديولوجية ليست إلا حلما خالصا (لا ندري أية قوة شكلتها إلا اذا كانت التغريب الناتج عن تقسيم العمل ، إلا أن هذا التعريف هو أيضا سلبى) .

٢ — الأيديولوجية لا تاريخ لها : هذا لا يعنى إطلاقا أنها لا تاريخ لها (بل بالعكس حيث أنها ليست إلا انعكاسا شاحبا ، فارغا ، ومعكوسا للتاريخ الحقيقى) . لكنها بمعنى أنها هى في حد ذاتها لا تاريخ لها .

(١) هو مؤلف من مؤلفات ماركس الضخمة (المترجمة) .

الا ان الأطروحة التي رغبت في الدفاع عنها عن طريق التبريد
الشكلي لمصطلحات الأيديولوجية الألمانية (« الأيديولوجية لا تاريخ
لها ») هي مختلفة جذريا عن الأطروحة الوضعية - التاريخية
للأيديولوجية العلمية .

ذلك ، لأنني اعتقد من ناحية أنه بإمكانني أن استند الى أن
الأيديولوجيات لها تاريخ خاص بها (بالرغم من أن هذا التاريخ
الخاص يتحدد أولا وأخيرا عن طريق صراع الطبقات) ومن ناحية
أخرى اعتقد أنه بإمكانني أن استند في نفس الوقت الى أن الأيديولوجية
لا تاريخ لها ، ليس بالمعنى السلبي (أن تاريخها خارجها) ولكن بمعنى
إيجابي تماما .

هذا المعنى الإيجابي إذا كان صحيحا أن خاصية الأيديولوجية
تكمّن في أن لها بنية ووظيفة بحيث أنها يكونان واقعا غير -
تاريخيا ، أي كلى التاريخية cmni-historique بمعنى أن هذه البنية
وهذه الوظيفة هما بنفس الشكل الثابت يتواجدان فيما نسبته التاريخ
برمته ، على ضوء المعنى الوارد في « البيان الشيوعي » حيث يعرف
التاريخ على أساس أنه تاريخ صراع الطبقات ، أي تاريخ المجتمعات
الطبقية .

لكن نقسم هنا اشارات ارشادية نظرية ، سأقول انطلانا
من المثل الذي أوردناه سابقا عن الحلم ، هذه المرة في المفهوم الفرويدي ،
في رأيي أن قضية أن « الأيديولوجية لا تاريخ لها » ، يمكن ويجب
(وبطريقة لا تمت بصلة للاعتباط لكنها بالمعكس نظريا ضرورية ،
لأنه هناك ارتباط عضوي بين القضيتين) أن تطابق مباشرة مع
قضية فرويد القائلة بأن « اللاوعي أبدى » ، أي لا تاريخ له .

إذا كان أبدى يقصد به فوق أي تاريخ (زمني) ، لكنه حاضرا
دائما في كل مكان ، عند التاريخ وثابت اذن في شكله على طوائف
التاريخ ، سأسترجع كلمة كلمة عبارة فرويد وسأكتب : الأيديولوجية
أبدية ، كالأوعي تماما . وسأضيف أن هذا التقارب يبدو لي نظريا
له مبرراته عن طريق واقعة أن أبدية اللاوعي لا يمكنها الا يكون لها
علاقة بأبدية الأيديولوجية بصفة عامة .

لهذا اعتقد انه مصرح لى ، على الأقل بشكل افتراضى ،
ان اقترح نظرية للأيدىولوجية بصفة عامة بالمعنى الذى قدم به فرويد
هو الآخر نظرية للملاعى بصفة عامة .

بعبارة أبسط ، سأعمل واضعا فى الاعتبار ما قيل عن
الأيدىولوجيات ، على أن يكون مناسباً أن أستعمل مصطلح الأيدىولوجية
فى حد ذاته لكى أشير للأيدىولوجيات بصفة عامة والتي قلت قبل قليل
أنها لا تاريخ لها ، أو أنها بنفس المعنى ، أبدية أى دائمة الحضور
فى شكلها الثابت على طول التاريخ (= تاريخ التشكيلات الاجتماعية
المشتملة على الطبقات الاجتماعية) . وسأقتصر فى الواقع مؤقتاً
على « المجتمعات الطبقة » وتاريخها .

**الأيدىولوجية هى « تصور » للعلاقات الخيالية القائمة بين الأفراد
والظروف الواقعية لوجودهم .**

من أجل أن نتطرق للأطروحة الرئيسية حول بنية ووظيفة
الأيدىولوجية سأقدم فى البداية أطروحتين ، أحدهما سلبية والأخرى
إيجابية .

الأولى عن الموضوع المقدم فى الشكل الخيالى للأيدىولوجية
والثانية عن مادية الأيدىولوجية .

**الأطروحة ١ : الأيدىولوجية تمثل العلاقة الخيالية القائمة بين الأفراد
والظروف الواقعية لوجودهم .**

غالباً ما يقال عن الأيدىولوجية الدينية ، عن الأيدىولوجية
الأخلاقية ، عن الأيدىولوجية القضائية ، عن الأيدىولوجية
السياسية ، الخ . . . أنها « مفاهيم عن العالم » . بلا شك ، انب
نقيل ، إلا إذا كنا نعيش إحدى هذه الأيدىولوجيات على أنها حقيقة ،
(على سبيل المثال إذا كنا « نؤمن » بالله ، بالتواجب ، بالعدل ، الخ . .)
أن الأيدىولوجية التى نتكلم عنها من وجهة نظر نقدية ، مع فحصها
كما يفحص باحث سلاوات الشعوب وأصولها ، أساطير « المجتمع
البدائى » ، أن هذه « المفاهيم عن العالم » هى فى جزء كبير منها
خيالية ، أى لا « تتطابق مع الواقع » . إلا أننا مع تقبلنا أنها لا تتطابق
مع الواقع وأنها بالتالى تشكل وهماً ، فإننا نقبل أنها كناية

عن الواقع وأنه يكفى تفسيرها لكىما نجد داخلها تحت ظل تصورها
الخيالى للواقع ، واقع هذا المعالم بعينه . (أيديولوجية = وهم /
كناية) .

هناك نماذج مختلفة للتفسير أكثرها شهرة هو النموذج الآلى
المنتشر فى القرن الثامن عشر ، (الله هو التصور الخيالى
لأملك فى الواقع) والتصور « التفسيري » الذى بدأه أوائل الآباء فى
الكنيسة وأعاد استخدامه فيورباخ والمدرسة اللاهوتية - الفلسفية
المستمدة منه ، مثلاً الباحث اللاهوتى بارت ، الخ . (بالنسبة
لفاويرباخ مثلاً ، الله هو جوهر الإنسان الحقيقى) . إذا دخلنا فى صلب
الموضوع فافتنا نقول أنه إذا تناولنا بالشرح التبديل (أو عملية القلب)
الخيالى للأيديولوجية . نصل الى الاستنتاج القائل بأنه داخل
الأيديولوجية « يتمثل الناس الظروف الواقعية لوجودهم بشكل خيالى » .

هذا الشرح يترك للأسف مشكلة صغيرة معلقة : لماذا « يحتاج »
الناس استبدال الظروف الواقعية لوجودهم بظروف خيالية ؟ .

الإجابة الأولى (الخاصة بالقرن الثامن عشر) تقدم حلاً بسيطاً :

الخطأ يقع على القساوسة أو الطفافة ، حيث اختلقوا أكانيب جميلة
من أجل أن يطيع الناس القساوسة أو الطفافة معتقدين أنهم هكذا
يطيعون الله ، متحالفين فى الخداع . القساوسة يخدمون الطفافة
والعكس صحيح ، حسب الأوضاع السياسية التى يقول بها المنظريون
هناك أن سبب للاستبدال الخيالى للظروف الواقعية للوجود : هذا
السبب ، هو وجود قلة من الناس الوقيحين الذين يرتكزون فى سيطرتهم
واستغلالهم « للشعب » على تصور خاطئ للمعالم تخيلوه حتى
يستعيدوا الأذهان عن طريق السيطرة على مخيلة الشعب .

الإجابة الثانية (الخاصة بفويرباخ ، والتى أعاد ماركس استخدامها
بحذاميرها فى مؤلفات شبابه) تعتبر أكثر عمقا ، وهى كالأولى خاطئة
أيضاً .

إنها تبحث وتجد هى الأخرى سببا للتبديل والتشويه الخيالى
للظروف الواقعية لوجود البشر ، باختصار سببا للاغتراب فى الخيال
الذى يقدمه هذا التصور وجود البشر . هذا السبب هذه المرة

لا يمكن لا في القساوسة ولا في الطفلة ولا في خيالهم الخصب والخيال
النسلي لضحاياهم . هذا السبب هو الاغتراب المادي المسيطر على
ظروف وجود البشر أنفسهم . هكذا يدافع ماركس عن القضية
اليهودية ، فضلا عن الفكرة الفيورباخية القائلة بأن الناس يقيمون
نصورا اغترابيا (= خاليا) لظروف وجودهم لأن هذه الظروف يحكمها
جوهر مجتمع تخريبي : « العمل المستلب » .

تستخدم جميع هذه الشروح اذن بالحرف الواحد الأطروحة التي
تفترضها وترتكز عليها . علما بأن ما ينعكس في التصور الخيالي للعالم
والذي نجده في الأيديولوجية ، هو ظروف وجود البشر ، أي عالمهم
الواقعي .

« الا اننى اكرر هنا أطروحة قدمتها من قبل : ما « يتصوره »
« البشر » في الأيديولوجية ليس هو الظروف الواقعية لوجودهم وعالمهم
انواقعي ولكنه قبل كل شيء هو تصور لعلاقتهم بهذه الظروف . وهى
العلاقة التي نجدها داخل أى تصور أيديولوجى ولهذا فهو بالتالى تصور
خيالى للعالم الواقعي . وداخل هذه العلاقة يعينها يكمن « السبب »
الذى يتمكن بواسطته من ادراك التشويه الخيالى الحاصل في التصور
الأيديولوجى للعالم الواقعي .

إذا تركنا مسألة « السبب » هذه جانبا واكملنا الأطروحة القائلة
بأن الطبيعة الخيالية لهذه العلاقة هى أساس أى تشويه خيالى ملحوظ
في أية أيديولوجية (ذلك اذا لم نكن واقعيين تحت تأثير الاعتقاد بصحة
هذه الأيديولوجية) . نقول باللغة الماركسية إنه اذا كان صحيحا
أن تصور الظروف الفعلية لوجود الأفراد الشاغلين لوظائف عامين
انتاج ، استغلال ، قمع ، أيديولوجية وتطبيق علمى ، يكشف أولا
وأخيرا عن علاقات الانتاج والعلاقات المشتقة من علاقات الانتاج ،
يمكننا أن نقول الآتى : كل أيديولوجية تمثل ، فى تشوئها الذى لا يبد
وأن يكون خياليا لا علاقات الانتاج القائمة (والعلاقات الأخرى
المشتقة منها) بل ، قبل كل شيء ، علاقة الأفراد (الخيالية) بعلاقات
الانتاج والعلاقات المشتقة منها .

هناك فى الأيديولوجية اذن تقديم لا لنظام العلاقات
الفعلية التى تحكم وجود الأفراد بل علاقة هؤلاء الأفراد الخيالية
بالعلاقات الواقعية التى يعيشون فى ظلها .

هكذا تسقط مسألة « سبب » التشويه الخيالى للعلاقات الواقعية فى الأيديولوجية ، حيث يتحتم علينا استبدالها بمسألة أخرى : هذا التصور المعطى للأفراد عن علاقتهم (الفردية) بالعلاقات الاجتماعية التى تحكم ظروف وجودهم وحياتهم الجماعية والفردية لماذا هو بالضرورة خيالى ؟ وما هى طبيعة هذا الخيال ؟ يستبعد طرح السؤال بهذا الشكل الحل الذى تطرحه زمرة من أفراد (تساوسة أو طغاة) من مبتدعى التعمية الأيديولوجية وكذلك الحل القائل بالصفة الاغترابية (الاستلابية) للعالم الواقعى . وسنرى السبب مما فيما يلى من عرض لنظريتنا . وسنرى أيضا لماذا لن نذهب أبعد من ذلك .

الاطروحة ٢ : ان للأيديولوجية وجودا ماديا .

لقد اقترينا الى حد ما من هذه الأطروحة عندما قلنا ان « الأفكار » أو « التصورات » ، الخ ، التى تبدو الأيديولوجية وكأنها مكونة منها ليس لها وجود مثالى ، فكرى ، روحى ولكن وجودها مادى . بل اننا اشرنا الى ان الوجود المثالى ، الفكرى ، الروحى « للأفكار » يشير على وجه الخصوص الى أيديولوجية عن « الفكرة » وعن الأيديولوجية ، بالإضافة الى أنه يشير الى أيديولوجية تتعلق بما يبدو أنه « أصل » هذا المفهوم منذ ظهور العلوم ، علما بأن مطبقى وممارسى العلوم يتمثلون هذا المفهوم فى أيديولوجيتهم العنوية « كأفكار » ، صائبة أو خاطئة . بالطبع فان هذه الأطروحة المقدمة فى صورة تأكيد لم يتم اثباتها بعد . اننا نطالب فقط ان نوجه لها ، باسم المادية ، تصورا مسبقا يتناسب معها . إذ ان اثباتها سيتطلب بالضرورة العديد من الأبحاث والشروع الطويلة .

هذه الأطروحة الافتراضية للوجود اللاروحى ولكن المادى « للأفكار » أو « التصورات » الأخرى ، هى فى الحقيقة ضرورية لكى نتقدم فى تحليلنا لطبيعة الأيديولوجية . أو بالأحرى ، هى ببساطة . تخدمنا من أجل أن نظهر ما بإمكانه أى تحليل جاد لاية أيديولوجية أن يظهره من الوهلة الأولى وبشكل تجريبي (امبريقي) فيوضحه لاي ملاحظ حتى اذا كان لا يتمتع بالحس النقدى .

لقد قلنا فى حديثنا عن الأجهزة الأيديولوجية للدولة وعن ممارساتها ان كل منها كان تحقيقا لايديولوجية ما (وحدة هذه الأيديولوجيات الاقليمية المختلفة — الدينية ، الاخلاقية ، القضائية ، السياسية ، الجماعية .. الخ طالما هى متوفرة عن طريق انضوائها تحت ظل الأيديولوجية السائدة .

استعيد هذه الأطروحة قاتلا : تتواجد الايديولوجية دائما داخل جهاز وفي قلب ممارسته العملية او ممارساته . هذا الوجود للايديولوجية هو وجود مادي . وبالطبع مان الوجود المادي للايديولوجية في جهاز ما وفي قلب ممارساته لا يتخذ نفس شكل الوجود المادي لرصيف او لبندقية ، حتى ان اعتبرونا ارسطيين — جدد (توجب الإشارة هنا الى ان ماركس كان يقدر ارسطو تقديرا عاليا) سنقول ان « المادة تتخذ اكثر من معنى » او بالأحرى انها تتواجد في اشكال مختلفة ، كلها راسخة أولا وأخيرا في المادة « الفيزيكية » .

إذا اختصرنا القول وتأملنا ما يحدث لدى « الأفراد » الذين يعيشون داخل الايديولوجية ، أي داخل تصور محدد عن العالم (تصور ديني ، أخلاقي ، الخ .) حيث التشويه الخيالي للايديولوجية يتوقف على علاقة هؤلاء الأفراد بظروف وجودهم ، أي أولا وأخيرا علاقتهم بعلاقات الانتاج والطبقة (ايديولوجية = علاقة خيالية مع علاقات فعلية) . سنقول ان هذه العلاقة الخيالية لها هي أيضا وجود مادي .

هكذا فاننا نستنتج ما يلي :

هناك شخص يؤمن بالله أو بالواجب أو بالمعدالة ، الخ . هذا الإيمان يشير الى (بالنسبة للجميع : أي بالنسبة لجميع الذين يعيشون داخل تصور ايديولوجي عن الايديولوجية يحول الايديولوجية الى أفكار تتسم بوجود معنوي) أفكار هذا الشخص ، أي ان إيمانه هنا يعود اليه كذات لها وعي يحمل الأفكار الخاصة بما تؤمن به .

باستعمال هذا المضمون « التصوري » الايديولوجي ، (الذات مزودة بوعي تتشكل فيه بحرية ، كما يتعرف من خلاله بحرية على أفكار يؤمن بها) ، يتدفق السلوك (المادي) تلقائيا من جهة الذات .

يتصرف هذا الفرد بهذا الأسلوب أو غيره ، ويتبنى هذا السلوك العملي . أو ذاك ، بل ويشترك في بعض الممارسات المنظمة وهي ممارسات الجهاز الايديولوجي الذي « تتبعه » الأفكار التي اختارها بكامل حريته وبكامل وعيه بصفته ذات . إذا كان مؤمنا بالله فانه يتردد على الكنيسة لحضور القداس ، يسجد ، يصلي ، يعترف ، ينفذ العقاب (فيها مضى كان العقاب ماديا بالمعنى المعروف للمصطلح) وبالطبع يتوب ويعيد الكرة ، الخ .

إذا كان يؤمن بالتواجب . فسوف نجد لديه السلوكيات التي تتفق وهذا الايمان ، والمدرجة في الممارسات الطقسية « التي تتناسب مع العادات الطيبة » . إذا كان مؤمنا بالمعدالة فسيمثل القوانين بلا جدال ، بل وبإمكانه أن يعترض إذا خرقت القوانين ، أن يوقع الاتهامات ، أن يشارك في المظاهرات ، الخ .

من خلال هذا الرسم التوضيحي يتضح لنا إذن أن التصور الأيديولوجي للأيديولوجية هو نفسه ملزم بالاعتراف بأن كل « ذات » تمتلك « وعيا » وتؤمن « بأفكار » يستوحىها ويقبلها وعيها بكامل الحرية ، كما أنها ملزمة بالاعتراف بأن هذه الذات يجب أن « تتصرف بمقتضى أفكارها » ، عليها إذن أن تدرجها في سلوكياتها وممارساتها المأدبة (أو العملية) لأفكارها الخاصة كذات حرة . « ولا يليق » إيدانها إلا تفعل ذلك لأنها إذا لم تقم بها يتحتم عليها أن تقوم به بمقتضى ما تؤمن به ، بمعنى هذا أنها تقوم بشيء آخر هو له اسم أيضا ونق النموذج المثالي السابق ، إذ نفهم من هذا أن لديها أفكارا أخرى غير التي تنادى بها وأنها تسلك بمقتضى هذه الأفكار الأخرى بصفتها شخصية « غير متسقة » (« ليس هنالك إنسان شرير بارادته ») أو منحل يؤمن أن السلوك البشري تهين عليه المصالح الذاتية وحدها ، أو مشاكس منحرف .

على أي الأحوال ، أيديولوجية الأيديولوجية تعترف إذن ، رغم تشويبهما الخيالي ، بأن « أفكار » الذات الإنسانية تتواجد عبر أفعالها ، أو أنها يجب أن تتواجد في هذه الأحوال وإذا لم يحدث هذا فأنها تهدمها بأفكار أخرى تتناسب وأفعالها (حتى المنحرفة منها) . تتحدث هذه الأيديولوجية إذن عن الأعمال : وستحدث الآن عن الأعمال المتضمنة في ممارسات معينة. وسنلاحظ أن هذه الممارسات تحكمها طقوس معينة في قلب الوجود المادى للجهاز الأيديولوجي ، حتى لو كانت في جزء صغير جدا من هذا الجهاز : مثلا قداس صغير في إحدى الكنائس الصغيرة ، مراسم الدفن ، مباراة صغيرة في إحدى النوادي الرياضية ، يوم مدرسي في إحدى المدارس ، اجتماع ما أو جلسة لأحد الأحزاب السياسية ، الخ .

إلا أننا ندين « لجذلية » باسكال الدفاعية بهذا التعبير الرائع الذي سيسمح لنا بقلب نظام نموذج المفهوم الأيديولوجي رأسا على عقب ، يقول باسكال « أسجد ، حرك شفتيك بالصلاة وستؤمن » .

انه يقلب اذن بشكل مثنى نظام الأشياء حاملا معه ، مثل
المسيح ، لا سلاما بل وانقساماً بل حتى ما هو اكثر من الانقسام . وهو
ما يتنافى الى حد كبير مع المسيحية ، (لانه ويل لمن تأتى من قبله الشرور!)
وهذا هو الشر نفسه . وبالسعادة باسكال بهذا الشر الذى جعله هو
كأحد القديرين Janseniste . يستخدم لغة تستهدف الواقع فى حد
ذاته ، وتشير الى كبر الحقيقة . ولتسبحوا لنا بأن نترك باسكال للحجج
الخاصة بصراعه الأيديولوجى فى قلب الجهاز الأيديولوجى الدينى للدولة
فى عصره . ويايتكم تسبحون لنا باستخدام لغة ماركسية اكثر مباشرة
إذا أمكن ، لاننا سندخل فى مجالات لم تكتشف بعد جيداً . سنقول
اذن ، إذا أخذنا مثلاً أحد الأشخاص ، أن وجود الأفكار الخاصة
بمعتقداته هو وجود مادي على أساس أن أفكاره هي أعمال مادية
متضمنة فى ممارسات مادية سنتها شرائع مادية تم تحديدها هي نفسها
عن طريق الجهاز الأيديولوجى المادي الذى تشير اليه أفكار هذا
الشخص .

بالطبع وأن الصفات الأربع « المادية » المذكورة فى هذا العرض
لا بد من تناولها بأساليب مختلفة : مادية الانتقال من أجل الذهاب
الى القداس ، مادية السجود ، حركة رسم الصليب أو تلاوة فعل
الندامة ، الجملة ، الصلوات ، تلاوة فعل الندامة ، العقاب ، النظرة ،
قبضة اليد ، الخطاب الشفهي الخارجى أو « الداخلى » (الضمير) ، على
أساس أنها ليست نفس الحركة المادية فى كل هذه الحالات .
ومنترك نظرية اختلاف أساليب المادية جانباً .

ويبقى أنه فى داخل هذا التصور المقلوب للأشياء ، لسنا على
الإطلاق بصدد « انقلاب » ، حيث نستنتج أن بعض المفاهيم اختفت تماماً
وببساطة شديدة من عرضنا الجديد هذا ، فى حين استمرت مفاهيم
أخرى وظهرت مصطلحات جديدة .

اختفى : مصطلح « أفكار » .

استمرت : مصطلحات « ذات » ، « ضمير » ، « إيمان » ، « أعمال » .

ظهرت : مصطلحات « ممارسات » ، « طقوس » ، « جهاز
أيديولوجى » .

هو ليس اذن انقلابا (الا في نطاق معنى حكومة انقلبت او قلبت) ،
لكنه تعديل (من نوع غير وزارى) غريب الى حد ما ، حيث اننا
تحصل على النتيجة التالية :

اختفت الأفكار كأفكار (أى على أساس أن لها وجود مثالى ،
روحى) ، إذ ظهر لنا أن الأفكار لها وجود مدرج فى الأعمال
انخاصة بالممارسات المنظمة عن طريق الطقوس المحددة أولا وأخيرا
عن طريق جهاز إيدولوجى معين . يبدو اذن أن الذات تتصرف على
أساس أنها متأثرة بالنظام التالى (اكملذور بحسب الترتيب
الفعلى له) :

إيدولوجية تتواجد فى جهاز إيدولوجى مادى ، تفرض ممارسات
مادية يحكمها طقس مادى . هذه الممارسات موجودة فى الأعمال المادية
للذات التى تتصرف بكامل وعيها وفق معتقداتها . الا أن نفس هذا
العرض يكشف أننا احتفظنا بالمفاهيم التالية: ذات ، وعى ، معتقد ، أفعال ،
أننا نستخلص بالتالى من هذا المقطع المصطلح الرئيسى والحاسم الذى
يتوقف عليه كل شئ : مفهوم « الذات » . وتكون هناك بالتالى هاتان
الأتروحتان المتلازمتان :

١ - ليس هناك ممارسة الا عن طريق وتحت ظل إيدولوجية
معيّنة .

٢ - ليست هناك إيدولوجية الا وكان مصدرها ذاتا ولاجل
ذات أخرى . يمكننا الآن أن نعود لأتروحتنا الأساسية .

※ الجزء الثالث فى العدد القادم .

الأيديولوجية والأجهزة الأيديولوجية للدولة

« الجزء الثالث »

لويس التوسير

ترجمة : عائدة لطفى

مراجعة وتقديم : د . أمينة رشيد

الأيديولوجية تستدعى نوات الأفراد

هذه الأطروحة بمثابة لشرح للفكرة التي قدمناها سابقا : ليست هناك أيديولوجية الا وكان مصدرها ذات ولأجل ذات أخرى .

أى : ليست هناك أيديولوجية الا من أجل ذات فاعلن لهم وجود في الواقع . ولا يتأتى هذا الا عن طريق ذات أخرى : بمعنى عن طريق نوعية الذات ووظيفتها .

نعنى بهذا أنه رغم أنه لم يعرف هذا الاسم « الذات » الا مع ازدهار الأيديولوجية البورجوازية والأيديولوجية الحقوقية(*) قبل كل شيء ، فإن نمط الذات (التي يمكن أن تتخذ أسماء أخرى : عند أفلاطون على سبيل المثال يطلق عليها : الروح ، الله ، الخ) هو نفس النمط الذى تتسم به الأيديولوجية أيا كان تعريشها (اقليمية او طبقية) ، وأيا كان تاريخها — حيث أن الأيديولوجية لا تاريخ لها .

(*) التى تستمر النمط الحقوقى القائل بأن « الذات القانونية » لتجعل منه

منهوما أيديولوجيا : الإنسان بطبيعته ذات .

نقول : نمط الذات هو المكون لأية أيديولوجية الا أننا نضيف في نفس الوقت وعلى الفور أن نمط الذات لا يشكل أية أيديولوجية الا اذا اتخذت الايديولوجية وظيفة لها بأن تشكل هي الأخرى ذوات الأفراد المرثيين . هنا توجد وظيفة الايديولوجية داخل هذا الدور في الطابع المزدوج ، فالأيديولوجية ليست سوى أسلوب عملها وتأديتها لوظيفتها من خلال الأشكال المادية لوجود أسلوب لتأدية وظيفتها هذه .

ومن أجل رؤية أكثر وضوحا نقول : يجب أن ننبه الى انه حتى كاتب هذه السطور وقارئها هما أيضا ذوات ، إذن ذوات أيديولوجيين أى أن المؤلف مثله مثل قارئ هذه السطور يعيشان « تلقائيا » أو « طبيعيا » في الأيديولوجية ، في إطار المعنى الذى ذكرناه أن « الانسان بطبيعته حيوان أيديولوجى » .

وتلك قضية أخرى أن يكون المؤلف — باعتباره صاحب خطاب — المفترض أنه علمى غائبا تماما كذات عن خطابه العلمى (لأن أى خطاب علمى هو بالتحديد خطاب بدون ذات ، فليس هناك « مؤلف (ذات) للعلم » الا في أيديولوجية عن العلم) ، وهذه مسألة أخرى نتركها جانبنا الآن .

وكما كان يقول القديس بولس باعجاب ، اننا نجد في المنطق Logos أى في الايديولوجية ، الدنيا « الكائن — الحركة والحياة » . بل ذلك بالنسبة لكم كما هو بالنسبة لى ، نمط الذات الذى هو بديهية أولية (البديهيات جميعها دائما ما تكون أولية) : من المعروف أننا ، أنا وأنتم ، ذوات (حرة ، أخلاقية ، الخ ..) . مثل جميع البديهيات ، بما فى ذلك تلك التى تؤدى الى استخلاص معنى للكلمة أى أن يكون لها معنى (وبما فى ذلك البديهيات الخاصة « بوضوح » اللغة) هذه « البديهة » القائلة بأننا ذوات — وأن هذه ليست بمشكلة — هي صاحبة تأثير أيديولوجى أى صاحبة التأثير الأيديولوجى المبدئى (*) والأولى كما أنه من خاصية الايديولوجية أنها تفرض (دون أن يظهر عليها ذلك ، بما أنها « بديهيات ») البديهيات كبرديهيات إذ لا يمكن لنا الا أن نعرفها وهي تولد لدينا رد الفعل الطبيعى الذى لا يمكن تلافيه

(*) يتعثر اللغويون وهؤلاء الذين يستمعون باللغويات لاهداف مختلفة ، كثيرا بالصعوبات المراجعة الى أنهم يجهلون لعبة التأثيرات الايديولوجية في جميع اشكال الخطابات — بما فيها الخطاب العلمى نفسه .

بأن نصرخ (بأعلى صوتنا ، أو في صمت « صمت الوعى ») : « هذا بديهى ! هو هكذا بالفعل ! هذا حقيقى ! » .

هى الحدى وظيفتى الأيديولوجية كأيديولوجيا (عكسها وظيفة الإنكار أو الجهل) .

ولتضرب مثلا ملموسا الى حد كبير ، لدينا جميعا (بالطبع) أصدقاء ، عندما يطرقون بابنا ونسأل نحن من وراء الباب المعلق هذا السؤال : « من هناك ؟ » ، يجيب الطارق (لأنه « شئ بديهى ») « هذا أنا ! » . وهكذا نعرف أنه « هى » أو « أنه هو » . نفتح الباب ، و « بالفعل نجد أنها هى التى كانت هناك » . ولكن نأخذ مثلا آخر ، عندما نتعرف فى الطريق على أحد معارفنا ، فأتنا نعرف له عن معرفتنا له (وبأتنا عرفنا أنه تعرف هو الآخر علينا) بأن نقول له « صباح الخير يا صديقى العزيز ! » وعن طريق السلام باليد (ممارسة طقسية مادية للاعتراف) (أو التعرف) الأيديولوجى فى حياتنا اليومية ، فى فرنسا على الأقل : فى أماكن أخرى هناك طقوس أخرى) .

عن طريق هذه الملاحظة المسبقة والشهادات الملموسة التى أوردناها أود أن نلاحظ معا أننا ، أنتم وأنا ، كنا دائما ومازلنا ذوات وهكذا نمارس بلا انقطاع طقوس الاعتراف (أو التعرف) الأيديولوجى التى تضمن لنا أننا بالفعل ذوات مرئية ، فردية ، لا يمكن الخلط بينها و (بالطبع) لا يمكن أن يحل محلها آخر . الكتابة التى أقوم بها الآن والقراءة التى تعكفون عليها الآن (*) هما أيضا على ضوء ما أوضحنا ، طقوس تعرف أو اعتراف أيديولوجى بما فى ذلك « « البديهية » التى يمكنها أن تفرض عليكم « حقيقة » (صحة) خواطرى أو « خطأها » لكن الاعتراف بأننا ذوات وأننا ندور فى طقوس المزاولة الخاصة بالحياة اليومية البسيطة للغاية (قبضة اليد ، مجرد أن تحمل الاسم الذى تحمله مجرد معرفة ، حتى لو كنت أجهل ذلك ، أنك « تحمل » اسم علم يجعلك معروفا كذات مفردة ، الخ . .) — هذا التعرف أو الاعتراف يمنحنا « الوعى » بمزاوتنا التى لا تهدأ — الأبدية — للتعرف (الاعتراف) الأيديولوجى ، — الوعى يعنى التعرف — ولكنها

(*) خذوا فى اعتباركم : الآن أن هذا ازدواج هو الدليل على أن الأيديولوجية

« أبدية » بما أن هذين « الآن » كلاهما منفصل عن الآخر عن طريق فاصل زمنى ما ، فأنى اكتب هذه السطور فى ٦ أبريل ١٩٦٩ فى حين أنكم تقرؤونها فى أى وقت .

لا تمنحنا أبدا المعرفة (العلمية) لآلية هذا التعرف . في حين أنه من الواجب الرجوع الى هذه المعرفة ، لذا أردنا . أثناء التحدث عن الأيديولوجية وفي قلب الأيديولوجية ، وإذا وضعنا رسما تخطيطيا لخطاب يحاول مقاطعة الأيديولوجية ليجازف بأن يصبح بداية لخطاب علمي (بدون ذات) عن الأيديولوجية .

اذن ومن أجل الرد على هذا السؤال : لماذا نمطية الذات هي التي تكون الأيديولوجية التي هي أيضا لن تتواجد إلا إذا شكلت الذوات المرئية كذوات . سأستخدم في الرد أسلوبا خاصا للعرض : «حسوسا» الى حد يمكن معه أن يكون معروفا ، ولكنه أيضا مجرد الى حد يمكن معه تصديقه والتفكير فيه ، بحيث أتيح مجالا للمعرفة .

سأطرح هذه الصيغة الأولية : كل أيديولوجية تنادى الأفراد المرتبين وتستدعيهم كذوات مرئية عن طريق كيفية عمل نمط الذات .

هذه الفكرة تفرض علينا أن نميزه مؤقتا ، بين الأفراد المرتبين من جهة والذوات المرئية من جهة أخرى ، بالرغم من أنه ليس هناك ، على هذا المستوى ، من ذات إلا وكانت منسوبة الى فرد مرئي .

هكذا أقترح عليكم أن الأيديولوجية « تعمل » أو « تسير » بحيث أنها « تضم اليها » ذوات من بين الأفراد (أنها تضمهم جميعا) ، أو تحول الأفراد الى ذوات (انها تحولهم جميعا) عن طريق هذه العملية الدقيقة التي نسميها « المناداة » (Interpellation) التي يمكن

أن نصورها بالنموذج الأكثر شيوعا للمناداة البوليسية (أو لا) اليومية: « أنت ، هناك ! » (*) إذا تصورنا أن المشهد النظري المتخيل يحدث في الطريق ، الشخص المنادى عليه سينظر للخلف . عن طريق هذا الالتفات الجسماني البسيط ذو الـ ١٨٠ درجة ، يصبح ذاتا . لماذا ؟ لأنه عرف أن المناداة كانت موجهة « بالفعل » له وأنه هو « بالفعل » الذي كان مقصودا بالمناداة « (وليس شخصا آخر) .

تبين التجربة أن وسائل الاتصال السلوكية واللاسلكية التي نستخدمها بهدف المناداة تتم بهذا الشكل ، أن المناداة لا تخطيء أبدا من تستدعيه : سواء كان النداء شفويا أو صغيرا ، فالمنادى عليه يعرف دائما أنه هو المقصود بهذا النداء .

(*) المناداة ، مزاوله يومية ، تخضع لطقس معين ، تتخذ شكلا « خاصا » تاما في الممارسة البوليسية « للمناداة » ، حيث تتم مناداة « المشبوهين » .

هى مع ذلك ظاهرة غريبة ولا يتم شرحها عن طريق « الشعور بالذنب » فقط ، على الرغم من وجود هذا العدد الكبير من الناس ممن « لديهم شيئا يلومون عليه أنفسهم » .

من الطبيعى ومن أجل سهولة ووضوح عرضنا الخاص بمسرحنا النظرى الصغير ، فقد اضطررنا لتقديم الأشياء فى صورة مقطع مرفقه شئ قبلها وشيئا بعدها ، أى فى صورة تتابع زمنى . هناك بعض الأفراد يتنزهون ، ينطلق من مكان ما نداء (غالبا ما يكون من خلف ظهورهم) : « أنت هناك ! » . أى فرد (فى ٩٠٪ من الحالات يكون هو دائما من هو مقصود بالنداء) يلتفت للخلف معتقدا — شاكا — مارفا أنه هو المقصود ، اذن عالما « أنه هو بالفعل » المقصود بالنداء . الا أن الأشياء فى الواقع تتم بلا أى تتابع . ويحدث نفس الشئ بالنسبة لوجود الأيديولوجية ونداء الأفراد كذوات .

يمكننا أن نضيف : ان ما يبدو أنه يتم بهذا الأسلوب خارج الأيديولوجية (بالتحديد فى الطريق العام) يتم فى الواقع بنفس الأسلوب فى الأيديولوجية .

أى ان ما يحدث فى الواقع داخل الأيديولوجية يبدو اذن أنه يحدث خارجها . ولهذا فان من هم داخل الأيديولوجية يتصورون أنفسهم بالتحديد خارجها . انها إحدى تأثيرات الأيديولوجية المتمثلة فى الإنكار العملى للصفة الأيديولوجية للأيديولوجية ، عن طريق الأيديولوجية :

الأيديولوجية لا تقول أبدا « أنا أيديولوجية » يجب ان تكون خارج الأيديولوجية أى فى المعرفة العلمية ، حتى يمكننا أن نقول : أنا داخل الأيديولوجية (أنها حالة خارقة للعادة تماما) أو (حالة عامة) : كنت داخل الأيديولوجية .

من المعروف أن الاتهام بالوجود فى الأيديولوجية لا يسرى الا بالنسبة للآخرين ولا يحدث أبدا بالنسبة لأنفسنا (الا اذا كنا بحق سبينوزيين أو ماركسيين ، فكل من سبينوزا وماركس ينطلقان من نفس الموقف فى هذه القضية ان الأيديولوجية ليس لها خارج (لها هى) ، لكنها فى نفس الوقت ليست الا الخارج (بالنسبة للعلم ، والواقع) . لقد شرح سبينوزا هذا جيدا قبل ماركس بمائتى عام ، وطبقه ماركس لكن بدون أن يشرحه بالتفصيل . لكن لتترك هذه النقطة ، المثقلة رغم ذلك بالنتائج ، وهى نتائج ليست فقط النظرية بل والسياسية مباشرة ،

بما انه سيتمد مثلا ان كل نظرية النقد والنقد الذاتى ، والتي هى قاعدة
أساسية لممارسة صراع الطبقات الماركسى - اللينينى ، تتوقف
عليها .

الأيديولوجية اذن تدعو الأفراد كذوات فاعلة . وبما ان الأيديولوجية
خالدة ، فعلينا الآن أن نزيل الصورة الزمائية التى قدمنا فيها حركة
مسير الأيديولوجية وأن نقول : الأيديولوجية كانت دائما تدعو الأفراد
كذوات فاعلة وهذا ما يدعونا الى أن نوضح كيف أن الأفراد دائما
ما تدعوهم الأيديولوجية كذوات ، مما يدفعنا بالضرورة الى فرضية
أخيرة : لقد سبق للأفراد أن كانوا على الدوام ذوات . اذن فالأفراد
« مجردون » بالمقارنة بالذوات التى سبق أن كانوا
على الدوام عليها . هذه الجملة يمكن أن تبدو لكم مفارقة . أن يكون
الفرد قد سبق له على الدوام أن كان ذاتا فاعلة ، من قبل حتى أن يولد ،
لكن هذه هى على الرغم من ذلك الحقيقة البسيطة التى يتقبلها الجميع
وايست على الإطلاق مفارقة . أن يكون الأفراد دائما « مجردين »
بالمقارنة مع الذوات التى سبق لها أن كانت موجودة دائما ، فان فرويد
أظهر لنا ذلك مع ملاحظته ببساطة للطقس الأيديولوجى الذى يغلف به
انتظار « ميلاد » ما ، هذا « الحدث السعيد » . كل منا يعرف جيدا
كيف ينتظر ميلاد أى طفل . وأن هذه الصورة لتبدو « منبذلة » ، اذا
اتفق أن تركنا جانبها « المشاعر » ، أى أشكال الأيديولوجية العائلية ،
الأبوية / الأمومية / الزوجية / الأخوية ، التى ينتظر من خلالها الطفل
الذى سيولد : من المعروف مقدما أنه سيحمل اسم والده ، سيكون له
اذن هوية ، ولن يحل محله آخر ، سيصبح انسانا لا يعوض . حتى
قبل أن يولد ، سبق الطفل اذن أن كان دائما ذاتا ، هى مخصصة له
ككائن فى وعن طريق الشكل الأيديولوجى العائلى الخاص الذى « ينتظر
الطفل من خلاله بعد أن تم تصويره مسبقا حاجة بنا . ولا الى القول
بأن هذا الشكل الأيديولوجى العائلى هو ، فى تفرد ، ذى بنية قوية ،
وبأنه داخل هذه البنية الصارمة ، المكتلة قليلا أو كثيرا (مع افتراض
أن هذا التعبير له معنى يمكن استحضاره) ، أن الذات الفاعلة التى
كانت منتظرة الذات الفاعلة القادمة والقديمة معا عليها أن « تجد »
مكانها ، أى تصبح الذات الجنسية (صبي أو فتاة) التى أصبح عليها
مسيقا . وبوسعنا أن نفهم أن لهذا الاكراه وهذا التعيين الأيديولوجى
المسبق وجميع طقوس النشأة والتربية العائلية ترتبط جميعا وجزئيا
بعلاقة ما درسه فرويد فى أشكال « المراحل » الـ ما - قبل - تناسلية

والتناسلية للعملية الجنسية ، «أى فى «حقل» ماكشف عنه فرويد ، عن طريق تأثيراته ، اللاوعى . وسنترك أيضا هذه النقطة جانبا . ولنتقدم خطوة الى الامام ، ان ما سيلفت انتباهنا الآن هو الطريقة التى يتم بها التفكير فى « ممثلى » هذا الاخراج المسرحى للمناداة وأدوارهم الخالدة فى النبوة ننسها لآية أيديولوجية .

مثال : الأيديولوجية الدينية المسيحية

بما أن البنية الشكلية لآية أيديولوجية هى نفسها دائما فاننا سنكتفى بتحليل مثال واحد ، سهل الفهم للجميع وهو الخاص بالأيديولوجية الدينية مع توضيح أن نفس البرهنة يمكنها أن تسرى وتنطبق بالنسبة للأيديولوجية الأخلاقية ، الحقوقية السياسية ، الجمالية ، الخ .

ولنتأمل إذن الأيديولوجية الدينية المسيحية . سنستخدم استعارة « ونجعلها تنطق » أى نجمع فى خطاب وهمى ما تقوله ليس فقط فى العهد القديم والجديد ، أى ما يقوله لاهوتوها ووعظاتها بل أيضا ممارساتها ، طقوسها ، احتفالاتها وقرابينها . سنجد أن الأيديولوجية الدينية المسيحية تقول تقريبا ما يلى .

تقول : انى أتوجه اليك ، أنت الفرد الانسان المسمى بطرس (كل فرد يسمى باسمه ، بالمعنى السلبى : ليس هو أبدا . من يطلق على نفسه اسمه) لكى أقول لك أن الله موجود وأنك مدين له . وتضيف : انه الرب الذى يكلمك بصوتى (الكتاب المقدس استقبل كلمة الرب ، وتنامته النواميس والعصمة الكهنوتية ثبتت الى الأبد نقاطه الحساسة ») . تقول : ها أنت : أنت بطرس ! ها هو أصلك ، لقد خلقت من رب الأبدية ، على الرغم من أنك ولدت فى ١٩٢٠ بعد الميلاد ! هذا هو مكانك فى العالم ! هذا هو ما يجب عليك عمله ! وبذلك ، اذا وضعت نصب عينيك « قانون المحبة » ، سيتم خلاصك ، أنت بطرس ، وستكون جزءا من جسد المسيح المجيد الخ ..

نحن هنا بصدد خطاب معروف تماما ومبتذل ، لكنه فى نفس الوقت مدهش . لأننا اذا اعتبرنا أن الأيديولوجية الدينية تتوجه للأفراد(*) من أجل أن « تحولهم الى ذوات فاعلة » عن طريق دعوة

(*) على الرغم من أننا نعرف أن الفرد كان دائما ذاتا فاعلة فاننا مازلنا نستخدم هذا التعبير الملائم بما انه يحدث تأثيرا متضادا .

الأفرد بطرس لتجعل منه ذاتا فاعلة ، حرة في استجابتها أو في عدم استجابتها للدعوة ، أي لأوامر الرب ، إذا كانت تناديهم بأسمائهم معترفة بهذا أنهم كانوا على الدوام ذوات لها هوية شخصية (إلى حد يقول معه المسيح على لسان باسكال : « من أجلك أنت أهرقت هذه النقطة من دمي ») ، إذا كانت تناديهم بحيث أن الذات تستجيب قائلة : « نعم ، هذا أنا بالفعل ! » ، إذا حصلت على اعترافهم بأنهم يشغلون بالفعل المكان الذي خصتهم به مثلما هو الحال بالنسبة لمكانهم في العالم حيث يوجدون في وضع محدد : « هذا حقيقي ، أنا هنا عامل ، رئيس ، جندي ! » في وادي الشقاء هذا ، إذا حصلت منهم على الاعتراف بوجهتهم (التي حددوها لأنفسهم) (الحياة أو الدينونة الأبدية) حسبما يتعاملون مع « وصايا الرب وشرائعه » بالاحترام أو بالتجاهل ، تلك الشرائع التي أصبحت محبة ، — إذا حدث كل هذا في واقع الحياة بنفس هذا الشكل (في ممارسات الطقوس المعروفة للعماد ، التثبيت الديني ، تناول ، الاعتراف ، والمسح ، الخ ...) ، علينا أن نشير إلى أن جميع هذه « الإجراءات » التي تبلور ذوات مسيحية متدينة محكمها ظاهرة غريبة : أنه لا يمكن أن تكون هناك وفرة في الذوات المتدينة إلا بشرط مطلق هو وجود ذات أخرى ، مطلقة هي الله .

لكي نميز بين هذه الذات الأخيرة والذوات الأخرى سنميز هذه الأولى بأحرف كبيرة (※) .

يبدو الآن أن دعوة الأفراد كذوات تفتري « وجود » ذات أخرى ، مريدة ، ومركزة ، تدعو الأيديولوجية باسمها جميع الأفراد كذوات .

كل هذا مكتوب (※※) بوضوح فيما يسمى بالكتاب المقدس « في ذلك الزمان خاطب الإله (يهوه) موسى في الغيمة . نادى الإله موسى قائلا : « يا موسى ! » « نعم هذا أنا ! قال موسى ، أنا عبدك ، تكلم أنا مصفى اليك ! » وخاطب الإله ، موسى . قائلا : « أنا هو من أنا » .

(※) بما أن اللغة العربية لا تستعمل كالملاط الأخرى أحرف كبيرة وأحرف صغيرة فأننا سنفرق بين الذاتين بإضافة صفة « العليا » فتصبح « الذات العليا » . (المترجمة)

(※※) انني استشهد بأسلوب مركب وأيس حرفيا ولكن ملتزم « بروح الموضوع » وحقيقته .

الله اذن عرف نفسه بأنه الذات نفسها ، الذى هو بذاته ولذاته (« أنا هو من أنا ») والذى ينادى الذات التابعة له ، الفرد الخاضع له بمجرد مناداته إلا وهو الفرد المسمى موسى . وموسى ، المدعو — والمسمى باسمه بما انه عرف انه هو الذى ناد عليه الله « بالفعل » ، يعرف انه ذات ، ذات تتيج الله ، ذات خاضعة لله ، ذات من قبل الذات العليا وخاضعة للذات العليا . والدليل انه يطيعه ويجعل شعبه يطيع وصايا الله .

الله اذن هو الذات العليا ، وموسى ، وحشود أفراد شعب الله ، من محاورين — المدعويين هم : مراياهم وصوره المنعكسة . ألم يخلق الانسان على صورة الله ؟ كما يثبت ذلك التفكير اللاهوتى ، فى حين انه (الله) وأفكر اللاهوتى كذلك ، « بإمكانه » أن يستغنى تماما عن ذلك .. ، الله فى حاجة للانسان الذات العليا فى حاجة للذوات المرعوسة تماما كما يحتاج الناس لله ، الذوات تحتاج لذات عليا . أكثر من ذلك : يحتاج الله الناس ، تحتاج الذات الكبرى لكل الذوات ، حتى فى الانعكاس البشع لصورته فيهم (حينما يتبرغون فى الفساد والخطيئة) . أكثر من ذلك : الله نفسه يصبح مزدوجا فيرسل ابنه على الأرض ، ثمجرد ذات « مهجورة ومهملة » وآدام المسيح وصلاته فى بستان جثيمانى على جبل الزيتون والتي انتهت بالصلب (ذات لكنها ذات عليا ، انسان لكنه اله ، لكى يتم الخلاص الأخير بقيامة المسيح . الله اذن هو نفسه فى حاجة الى أن يتأنس بصح انسانا ، الذات العليا فى حاجة الى أن تتحول لذات عادية ، حتى يتم الاثبات تجريبيا (امبريقيا) ، حتى تمكن رؤيته بالأعين ، ولمسه بأيدي (كالقديس توما) فاذا كان هؤلاء فاعلمين كالمسيح أى اذا كانوا ذوات خاضعة للذات العليا فما ذلك كله الا من أجل أن يدخلوا فى يوم الدينونة الأخير فى حضن الآب ، مثل المسيح ، أى فى الذات العليا (*) .

لنفك رموز هذا الازدواج المتمثل فى كون الذات العليا هى ذات عادية ويكون الذات العليا نفسها ذات عادية — ذات عليا — الى لغة نظرية . نستنتج أن بنية أية أيديولوجية تنادى الأفراد كذوات باسم ذات عليا منفردة ومطلقة هى عاكسة أى كالمرآة ، وعاكسة : بشكل مزدوج هذا الانعكاس المزدوج هو من مكونات الأيديولوجية ويضمن لها

(*) عقيدة الثالوث المقدس هى نفسها نظرية ازدواج الذات العليا (الآب)

فى ذات عادية (الابن) وعلاقتها العاكسة (الروح القدس) .

سرها وتأدية عملها . مما يعنى أن أية أيديولوجية هى متركزة ، أن الذات المطلقة تحتل المكان المنفرد فى المركز وتستدعى من حولها العدد اللانهائى من ذوات الأفراد مع منحهم الضمان فى الذات العليا التى يمكن لآى ذات أن تتأمل فيها صورتها الخاصة (الحالية أو المستقبلية) فالأمر يتعلق بالفعل بهم وبه هو ، وأن كل شئ يحدث داخل العائلة (العائلة المقدسة : العائلة فى الأصل مقدسة) ، « حيث سيتعرف الله على أبنائه » أى هؤلاء الذين عرفوا الله والتقوا بأنفسهم فيه ، هؤلاء سيحصلون على الخلاص .

لنلخص ما توصلنا اليه عن الأيديولوجية بصفة عامة . البنية العاكسة المزدوجة للأيديولوجية تضمن فى نفس الوقت :

- ١ - دعوة أو مناداة « الأفراد » كذوات فاعلية .
- ٢ - خضوعهم للذات العليا .
- ٣ - التعارف المتبادل بين الذوات والذات العليا وبين الذوات أنفسهم وفى النهاية تعرف الذات على نفسها (※) .
- ٤ - الضمان المطلق أن كل شئ على ما يرام هكذا وأنه بشرط أن تتعرف الذوات على أنفسهما ولتسلك على هذا الأساس فكل شئ سيكون على ما يرام حينئذ « هكذا يكون » (أمين) .

النتيجة : ضمن نظام مناداة الذوات التى يعنى هذا ، والخاص أيضا بالخضوع للذات العليا ، الخاص بالتعارف الشامل والضمان المطلق ، حيث يتحرك الأفراد « من تلقاء ذاتهم » فى معظم الحالات ، باستثناء « الذوات السيئة » التى تتسبب من آن الى آخر فى تدخل هذا أو ذاك الانفصال عن جهاز الدولة (القمعى) ، لكن معظم الذوات (الطيبة) تتحرك جيذا « من تلقاء ذاتها » ، أى على حسب الأيديولوجية (التى تتحقق أشكالها المحسوسة فى الأجهزة الأيديولوجية للدولة) . ويندجون فى الممارسات التى تحكمها طقوس الأجهزة الأيديولوجية للدولة . ويعترفون بوضع الأشياء القائم ، أنه « بالفعل هو هكذا

(※) هيجل هو أحد منظرى الأيديولوجية الباهرين « كمنظر » للتعارف العالمى والذى انتهى للأسف عند أيديولوجية المعرفة المطلقة . فيورباخ هو أحد « المنظرين » الرائعين للعلاقة الماركسية والذى انتهى للأسف عند أيديولوجية الجوهر الإنسانى لكى نجد ما نطور به نظرية عن الضمانة علينا الرجوع الى سبينوزا .

ونبش شيئاً آخر) ، انه يجب طاعة الرب ، طاعة الضمير ، القس ،
دبجول ، الرئيس في العمل ، المهندس ، أننا علينا ان نحب قريبنا كما
نحب أنفسنا ، الخ . ويكون ساوكمهم العلى ، المادى ليس ترجمة
حباتية لهم في هذه الكلمة البديعة في صلاتهم : (آمين) .

نعم الذوات « تسير من تلقاء ذاتها » . ويمكن كل سر هذا التأثير
في اللحظتين الاوليين لهذا النظام التريعى الذى تحدثنا عنه مسبقا ،
أو اذا فضلت القول انه يتوقف على الالتباس الموجود في مصطلح
الذات . في المعن المتعارف عليه ذات تعنى بالتحديد :

١ - شخصية حرة : مركز مبادرات ، صاحب أفعاله ومسئول
عنها .

٢ - كائن مستعبد خاضع لسلطة غنيا ، اذن مجرد من أية حرية
غيبا عدا أن يتقبل بكامل حريته خضوعه .

وتعطينا هذه الاشارة الأخيرة معنى الالتباس والذى لا يعكس
الا الأثر الذى يحدثه : يدعى الفرد كذات (حرة) من أجل أن تخضع
نفسها بكامل حريتها لأوامر الذات العليا ، اذن لكى يتقبل (بكامل
الحرية) استعباده ، اذن لكى « يقوم بنفسه » بإشارات وتصرفات
اخضاعه . ليس هناك ذوات الا عن طريق اخضاعها ولأجل هذا
الاخضاع . ولهذا فانهم « يتحركون من تلقاء ذاتهم » .

(آمين) .. هذه الكلمة التى تحمل داخلها الاستعداد للتقبل ،
تثبت أن « الوضع الطبيعى » يختلف عن هذا . (« وضع طبيعى »
خارج هذه الصلاة ، أى خارج التدخل الايديولوجى) .

تثبت هذه الكلمة أن الأمور يجب أن تتم بهذا الشكل لكى تصبح
الأشياء كما يجب أن تكون عليه . من أجل أن يصبح إعادة انتاج
علاقات الانتاج حتى في عملية الانتاج وحركة سيرها ، مضمونة كل يوم
في « وعى الأفراد » أى في سلوك الأفراد - الذوات الحاصلين على
مراكز عمل حدها لهم التقسيم الاجتماعى - التقنى للعمل داخل
الانتاج ، الاستغلال ، القمع ، الاخضاع للايديولوجية ، الممارسة
المعلمية ، الخ . ما هو الهدف الحقيقى من هذه الآلية الخاصة بالتعارف

العاكس للذات العليا والأفراد المدعويين كذوات والخاص بالضمان
الممنوح من قبل الذات العليا للذوات العادية اذا قبلت بحريتها ان
تخضع لأوامر الذات العليا ؟ ما نحن بصدد في هذه الآلية وما هو غير
معروف بالضرورة في اشكال التعرف نفسها (ايديولوجية = تعرف/
جهل) هو بالفعل ، في نهاية المطاف ، اعادة انتاج علاقات الانتاج
والعلاقات المشتقة فيها .

يناير - ابريل ١٩٦٩

اضاءة

اذا كانت هذه الأطروحات القليلة السابقة تسمح باضاءة بعض
مظاهر أسلوب عمل البنية الفوقية ونمط تدخلها في البنية التحتية فهي
بالتأكيد مجردة وتترك بالضرورة مسائل هامة معلقة والتي يجب ان
نتناولها بوضع كلمات :

١ - المسألة الخاصة بقضية جملة تحقيق اعادة انتاج علاقات
الانتاج وتشارك الأجهزة الأيديولوجية الخاصة بالدولة ، كعنصر في
القضية ، في اعادة الانتاج هذه . لكن وجهة النظر الخاصة بمشاركتها
لاتزال مجردة .

الاعادة الانتاج هذه لا تتحقق الا في قلب عملية الانتاج وحركة
السير . تتحقق عن طريق آلية هذه العملية حيث « يتم » تشكيل
العاملين وحشي تحدد لهم مراكزهم الوظيفية ، الخ . داخل الآلية
الداخلية لهذه العملية يأتي أثر الأيديولوجيات المختلفة (الأيديولوجية
الحقوقية والأخلاقية قبل كل شيء) .

الا ان وجهة انظر هذه لاتزال مجردة . لانه في المجتمع الطبقي
فان علاقات الانتاج هي علاقات استغلال ، انن فهي علاقات بين طبقات
متخاصمة مع بعضها . اعادة انتاج علاقات الانتاج . الذي هو هدف
نهائي للطبقة السائدة ، لا يمكن اذن ان يكون مجرد عملية تقنية تشكل
وتوزع الأفراد على الوظائف المختلفة « للتقسيم التقني » للعمل .
في الحقيقة ليس هناك ، الا في أيديولوجية الطبقة السائدة ، من
« تقسيم تقني » للعمل : ان تقسيم « تقني » ، أي « تنظيم » تقني
لنعمل هو شكل وقناع للتقسيم والتنظيم الاجتماعيين (= طبقي) العمل

اعادة انتاج علاقات الانتاج لا يمكن اذن ان يكون الا مشروعا طبقيا ،
هذا المشروع يتحقق عن طريق صراع طبقي تتواجه فيه الطبقة
السائدة والطبقة المستغلة بفتح الغين .

٢ - مسألة الطبيعة الطبقيّة للايديولوجيات الموجودة في تشكيلة
اجتماعية ما .

« آلية » الايديولوجية بصفة عامة هي واحدة من الأشياء . لقد
رأينا أنها انحصرت في بعض المبادئ القليلة . (« شريحة » كمثال تلك
التي تعرف على حسب قول ماركس الانتاج عموما ، أو لدى فرويد
اللاشعور بصفة عامة) . ورغم صحتها عموما فان هذه الآلية مجردة
بما يتعلق بأي تشكيل ايديولوجي واقعي .

لقد قدمنا فكرة ان الايديولوجيات يتم تحقيقها في المؤسسات من
خلال طقوسها وممارساتها أي الأجهزة الايديولوجية للدولة . ولقد
رأينا أنها تؤدي هكذا الى هذا الشكل من صراع الطبقات ، الحيوى
بالنسبة للطبقة السائدة تماما مثل اعادة انتاج علاقات الانتاج .
الا ان وجهة النظر هذه على الرغم من واقعيتها فانها تبقى مجردة
ايضا .

في الحقيقة ان الدولة وأجهزتها ليس لهم من معنى الا من خلال
وجهة نظر صراع الطبقات ، كجهاز صراع طبقات يضمن الاضطهاد
والظلم الطبقي ، ويضمن شروط الاستغلال واعادة انتاجه . لكن ليس
هناك صراع طبقي بدون طبقات متعارضة مع بعضها . الصراع الطبقي
ضد طبقة سائدة يعنى مقاومة . تمرد وصراع طبقي من جهة الطبقة
المحكومة .

لهذا فان الأجهزة الايديولوجية للدولة ليست هي تحقيق
الايديولوجية بصفة عامة ولا تحقيقا بلا منازع للايديولوجية الطبقة
السائدة ، ذلك ان ايديولوجية الطبقة السائدة لا تصبح سائدة بفضل الله
(أو السماء) ولا أيضا عن طريق مجرد استيلائهم على سلطة الدولة ،
بل عن طريق ارساء أجهزة ايديولوجية تابعة للدولة حيث تتحقق من
خلالها الايديولوجية وهكذا تصبح سائدة . الا ان هذا الارساء لا يتم
من تلقاء ذاته فهو على العكس هدف صراع طبقي عنيف ومتواصل :
في البداية ضد الطبقات السائدة قديما وضد أوضاعهم في الأجهزة
الايديولوجية القديمة والجديدة ، ثم ضد الطبقة المستغلة .

وما وجهة النظر هذه حول الصراع الطبقي في الأجهزة الأيديولوجية التابعة للدولة الا مظهرا من مظاهر صراع الطبقات والذي هو أحيانا هام وعرضي : على سبيل المثال ذلك الصراع ضد التدين في القرن الثامن عشر ، مثلا «أزمة» الأجهزة الأيديولوجية للدولة المدرسية الملاحظة اليوم في جميع الدول الرأسمالية . لكن صراع الطبقات في الأجهزة الأيديولوجية للدولة ليس الا مظهرا من مظاهر صراع الطبقات الذي يتعدى الأجهزة الأيديولوجية للدولة .

لتحقق الأيديولوجية التي تجعلها الطبقة الحاكمة أيديولوجية سائدة في أجهزتها الأيديولوجية التابعة للدولة « لتحقيق » بالفعل في هذه الأجهزة الأيديولوجية للدولة ولكنها أيضا تتعدها لأنها تأتي من مصدر آخر وكذلك الأيديولوجية التي تنهج الطبقة المحكومة في الدفاع عنها وجماعتها وهي تتصدى للأجهزة الأيديولوجية للدولة هي أيضا تتعدى هذه الأجهزة لأنها تأتي من مصدر آخر انه فقط من وجهة نظر الطبقات ، أي صراع الطبقات يمكننا أن ننتبه لوجود الأيديولوجيات المتضمنة في تشكيلة اجتماعية ما .

لأبداء من هنا فقط يمكننا أن ننتبه لتحقيق الأيديولوجية السائدة في الأجهزة الأيديولوجية للدولة ولأشكال الصراع الطبقي التي تعتبر أجهزة الأيديولوجية للدولة مقرا وهدفا لها ، لكن أيضا وعلى الأخص بدءا من هنا يمكننا أن نفهم من أين تأتي الأيديولوجيات التي تتحقق في الأجهزة الأيديولوجية للدولة وتنصب فيها . لأنه اذا كان صحيحا أن الأجهزة الأيديولوجية للدولة تمثل الشكل الذي يجب أن تتحقق بالضرورة من خلاله أيديولوجية الطبقة السائدة وهو الشكل الذي يجب على أيديولوجية الطبقة المحكومة أن تقيس نفسها به وتواجهه ، الأيديولوجيات لا « تتوالد » في الأجهزة الأيديولوجية للدولة ولكن من الطبقات الاجتماعية المشتقة في صراع الطبقات : من ظروف وجودهم ، ممارساتهم وخبرتهم في الصراع . الخ .